حالات نادرة (7)

قصص غريبة من مستشفى الطب النفسي





م. عبدالوهاب السيد الرفاعي

تنويــه

يسألني القراء باستمرار ودون توقف عن مدى واقعية القصص التي أكتبها.. ولهؤلاء الأعزاء أقول:

أعتذر بشدة عن الإجابة لأسباب لا مجال لذكرها.

مقدمة

إنها تلك الرغبة الغريبة بالكتابة وإفراغ أفكاري وذكرياتي على الورق.. ولحُسن الحظ أنني أحتفظ في ذاكرة هاتفي بكل الخطوط العريضة للقصص الغريبة -أو الحالات النادرة- التي تمر علي خلال عملي كطبيب نفسي.. مما يسهّل كثيرا مسألةَ صياغتها وسردِها لكم.. كما أن هذا الوقت المتأخر من الليل عامل مساعد أيضا كي أمسك بالقلم في غرفتي المظلمة سوى من إضاءةِ النوم التي تمنحني الجو الكئيب الذي أحبه.. فالساعة تقترب من منتصف الليل.. وأنا كائن ليليٌّ بامتياز.. هذا واضح من نمط حياتي الذي لم يعد يخفى عليكم.

أظن أنني أعاني من حالة (تفضيل الليل) أو (نيكتوفيليا) كما يُطلَق عليها.. إنها الحالة النفسية التي يعشق فيها الإنسان السهرَ حتى ساعات متأخرة من الليل ويقضيها في الأماكن قليلة الإضاءة(1).. وهذه الحالة -بالمناسبة- توفّر المجال المناسب للإبداع والتفكير.. إذ شكّلت الجو المثالي لبزوغ أعظم العلماء والفلاسفة على مر التاريخ.. وإن لم أكن أدَّعي أنني أحدهم على كل حال.. أما أهم أسبابها فهو الاكتئاب بالط [illegible]

عموما.. أشعر [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] نفسية وجسدية هائلة بعد أن أعددتُ لنفسي كوبًا من عصير الليمون

بالنعناع، مخلوطًا بالثلج المبشور.. لأشربه ببطء شديد محاولًا الاستمتاع بكل رشفة منه.. والآن -وفي هذه الأجواء الجميلة- أستطيع البدء في الكتابة وسرد مذكراتي التي وصلت إلى الجزء الـ ... مهلًا.. في أي جزء نحن؟!.. يااااه.. إنه الجزء السابع!!.. هذا مذهل.. لم أظن للحظة أنني سأصل إلى هذا الرقم الذي بدا خياليًّا وبعيدا عن الواقع حين نشرتُ الجزءَ الأول عام 2011.

ورغم أن الأجزاءَ السابقة حملَتْ قصصًا مذهلة غاية في الغرابة كما أكد القراء بأنفسهم.. إلا أن الرقم (7) تحديدًا يبقى غامضًا مميَّزًا مثيرًا لسبب غير مفهوم.. فهو يرتبط بتاريخ البشرية ارتباطًا وثيقًا يثير الانتباه.. بل ويرتبط أيضا بالأديان السماوية أكثر من أي رقم آخر(2).. أما بالنسبة لي.. فهو جزء جديد آمل أن يكون مميزًا بدوره من تلك السلسلة التي بات يترقَّبها الكثيرون.. (حالات نادرة).

ولمن يبدأ السلسلة من هذا الجزء مباشرةً من دون الاطلاع على الأجزاء السابقة.. فلا بأس بذلك.. كل ما يهمك معرفته أنني طبيب نفسي أعمل في مستشفى الطب النفسي في دولة (الكويت).. أعزب رغم عمري الذي يزحف نحو الخمسين.. أنتمي لعائلة كبيرة بعدد أفرادها.. لكنني اخترتُ الانعزالَ عنهم والانتقالَ إلى شقة أنيقة في منطقة (الشامية)؛ كي أعيش في العُزلة التي أحبُّها.. فأعظم فوائد العُزلة هي ضبط مصنع حياتك إن صحَّ التعبير.

وبالطبع وجدت في هذا التصرف اعتراضات شرسة من أفراد العائلة.. كوالدتي أطال الله في عمرها.. وشقيقي الأكبر الذي يُبدي امتعاضَه دوما من نمط حياتي الغريب كما يصفُه.. ومن عُزلتي وعدم التزامي بالواجبات الاجتماعية.. فإما أن أتزوج.. أو أكون أعزبًا أعيش في بيت العائلة كما هو الحال مع أي رجل أعزب في عالمنا العربي الحبيب.

وربما أتسبَّب لأفراد العائلة بالمزيد من الامتعاض في تجمُّعنا الأسبوعي.. حيث أجلس هادئًا منعزلًا نفسيًّا.. مستمعًا لنصائح والدتي المكرَّرة حول ضرورة زواجي كي تفرح بي قبل موتها على حد قولِها.. وإصراري على كلامي أنني لن أتزوجَ إلا حين يخفق قلبي تجاه فتاة.. ولن أقبل أبدا بالزواج التقليدي.. ليتدخل أشقَّائي في النقاش وتتعالى الأصواتُ قبل أن أسكتَ وأكتفي بالاستماع.. ثم يسكت الجميع بيأس على أمل إقناعي لاحقًا.. نعم.. هكذا هم أفراد عائلتي ومعظم العوائل للأسف.. يحبونَك كثيرا.. فقط لأنك مُطيعٌ لرغباتهم ولا تتمرَّد.. لكن جرب أن تعارضَهم -كما فعلتُ أنا- وسترى حقيقةَ هذا الحب.. ستجد من يحتضنُك يتحوَّل إلى شخص آخرَ لن يتورَّع عن محاربتِك بشتَّى الوسائل.

لتمرَّ السنوات من دون أن أخوض أي تجارب عاطفية.. كل هذا ولَّد في داخلي ذلك الشغفَ أن أعيش الحب ولو

لمرة.. المشكلة أن قلبي يُعاندني بإصرار غريب.. فأظل أبحث في عيون الفتيات عن واحدة تشبهني.. تشبه تشتُّتي.. غرابةَ أطواري.. حزني ومَخاوفي.. أفكاري السوداويَّة.. اكتئابي.. فقط لكي ائتمنها على نفسي وأجعلَها ترافقني طوال العمر.. وأعاملها بالمقابل كأميرة متوَّجة على عالمي الخاص.. لكن كل محاولاتي فشلت للأسف.

ورغم ذلك.. ما زلت أُصرُّ على ألَّا أغيّر نفسي من أجل أحد.. فأحاول أن أكونَ أنا أمام الجميع.. بكلامي وأسلوبي وشخصيَّتي وتفرُّدي.. ولا أحاول شراء قبول الآخرين بالتلون من أجلهم.. إذ لا يوجد أي ضرر من أن تكون أنتَ.. أفضل من أن تكون نسخةً مكررة من أحدهم.. وهذا ما يجعلُني أعشق وحدتي.. وأعشق شقَّتي الصغيرة الأنيقة التي تحمل سَعة هائلة للتأمل لا أجدُها في الكون كله.. حيث أجد الصداقة الحقيقية في الكتب والأفلام الوثائقية التي أتابعُها باهتمام شديد.. والأفلام الأجنبية التي أتابعها أيضا على سبيل التسلية.

كما أنني أحبُّ عملي كثيرا.. وأحرص على اكتساب المزيد من الخبرة.. وهذا ما جعلني قادرًا على مواجهة حالات مَرضيَّة كثيرة، ربما يعجز أطباء نفسيُّون آخرون عن علاجها.. فعرفت أسرارًا رهيبةً سمعتُها على لسان بعض الزوار والمرضى.. أسرار تتجاوز الأمراضَ النفسية بكثير..

إذ تصل أحيانا إلى جرائم معيَّنة تمَّ ارتكابُها بطرق شديدة الدهاء لتحقيق مصالح معينة.. أو الثأر بطرق أكثر دهاءً وعبقريةً للابتعاد عن دائرة الشبهات.. وهناك من تعرضوا إلى تجارب تدور أحداثُها حول (علم نفس الخوارق) أو (الباراسيكولوجي)(3) كما يطلق عليه.. هذا العلم الذي أرجّح وجوده على أرض الواقع.. في حين ما زال بين الكذب والتصديق عند الأوساط العلمية.. لأنتهي إلى حقيقة مروّعة.. وهي أننا لا نُعاني من ضغوطات الحياة.. بل ضغوطات البشر.. وهذا ما يجعل المرضى النفسيين في الخارج.. أكثرَ بكثير مما هم في الداخل.

وخلف كفاءتي الطبية هذه.. اكتشفتُ أنني أحلُّ مشاكلَ الجميع.. وأعجز عن حل مشاكلي الشخصية.. حتى أصبحتُ كعامل البناء الذي يشيّد القصور الفخمة.. وبيتُه متهالِك.. متماشيًا مع ذلك المثل (باب النجار مخلَّع).. علما بأن بابي ظل مخلوعًا لأنني منشغل بإصلاح أبواب الغير.

تسألون عن اسمي؟!.. لا أعرف بِمَ يُهمُّكم ذلك.. فالجميع يُناديني بلقب (دكتور).. حتى والدتي نفسها.. ولا أذكر في الواقع متى سمعتُ اسمي على لسان أحدهم آخرَ مرة.. لذا أرجو أن نترك اسمي جانبا.. ولنتحدَّث بما هو أهم.. القصصُ الغريبة التي أسمعها على لسان بعض ممَّن يزوروننَي في مستشفى الطب النفسي.. تلك القصص التي

تركثني أحيانا كثيرة في حالة من الذهول.. متسائلا عن كم الأسرار التي يحتفظ بها البشر لأنفسهم.. ولا يفكّرون في البوح بها إلا عند الضرورة القصوى.. وحين تكون حالتهم النفسية -أو حياتهم نفسها- على المحك.

لتتكرر التساؤلات التي يطرحها القراءُ دوما.. هل القصص ممتعة؟!.. هل هي متنوعة؟!.. هل تمتلئ بالإثارة والغموض؟!.. إنني أحاول قدرَ الإمكان أن أجعلَها كذلك.. فأنا أحرص على اختيار أغرب القصص التي عشتُها أو سمعتُها.. وهذا ما جعل السلسلة مستمرة منذ انطلاقتها عام 2011 حتى الآن.. آمُل أن أكون قد وُفّقتُ هذه المرة أيضا.

لن أُطيل الحديث أكثر.. سأترُكُكم الآن مع جزء جديد من مذكراتي.. و5 قصص جديدة تدور أحداثُها في منتصف عام 2021 ومع عودة الحياة إلى طبيعتها بعد جائحة (كورونا) التي تحدثتُ عنها في الجزء السابق من مذكراتي.. على أن نلتقيَ في الخاتمة؛ حيث سأقومُ بالتعليق على كل القصص والأحداث.

الدكتور (....)

حادث دهْس!!

تحكيها: سيدة لم تخبرني باسمها

أقف أمام نافذة غرفتي في المستشفى.. أنظرُ إلى ساعة يدي وأجدُها تجاوزت العاشرة مساء بقليل.. ثم أنظرُ إلى الأجواء في الخارج بشرود وبشيء من الضيق بسبب موجة الغبار التي غطت كل شيء.. فأصبحت الرؤية صعبةً قليلا.. وهي أسوأ الأجواء بالنسبة لكل إنسان يعيش في بيئتنا الخليجية.. حيث تشعر أن الأتربة تكاد تدخل فمَك وأنفَك.. لا أعرف لماذا تكذب تنبُّؤات المطر في حين تصدق تنبُّؤاتُ الغبار دوما.. أبتسم لا شعوريًّا تجاه خواطري هذه.. ثم أستدير بيأس إلى أحد أدراج مكتبي كي أُخرِج منه ملطّف جو.. علّه يُضفي شيئا من الانتعاش في المكتب ويُنسيني أجواء الخارج.

لكني لم أجد الوقتَ لأفعل ذلك بسبب تلك السيدة التي رأيتها واقفةً تتنحنحُ عند عتبة باب الغرفة.. إنها في منتصف الأربعينيات كما تبدو.. أي في مثل سِني تقريبا.. كان يبدو عليها الارتباك الشديد وهي تحمل نظراتِ الألم والضياع والتوتر معا.. فبدت لي وكأنها ستنفجر من تلقاء نفسها في أيّة لحظة.. تماما مثل مادة (أزيِد الرصاص) التي قرأتُ عنها ذات يوم(4).. وربّما لو رأى أحدهم تلك السيدة لظن للوهلة الأولى أنها مصابة بـ(متلازمة توريت)

بسبب ملامحِها التي تبدو وكأنها فقدَت السيطرةَ عليها.. لكن بالطبع لا.. فالمصاب بتلك المتلازمة سيكون أسوأ حالًا (5).

ابتسمت لأُشعِرَها بالأمان.. وطلبت منها الدخولَ والجلوسَ كي تلتقطَ أنفاسَها.. ثم نهضتُ لأُخرِجَ زجاجة ماء من ثلاجتي الصغيرة كما أفعل عادةً تجاه من أشعر أنهم بحاجة إلى التهدئة.. وقدَّمتُها لها بتعاطف.. فأمسكَتْ بالزجاجة بلهفة وهي تُتمتمُ بكلمات الشكر.. لتضعها على جبهتها وعلى وجهها للحصول على بعض الانتعاش رغم التكييفِ البارد في المستشفى.. أما أنا فظللتُ أنظر إليها محاولًا فهم أعماقِها.

كانت ممتلئةَ الجسم قليلا.. تحمل ملامح دقيقةً جميلةً.. وقد تركَتْ شعرَها الأسود منسدلًا على العباءة الخليجية التي ترتديها.. لا أفهمُ في العباءات لكن تبدو وكأنَّها من نوع باهظِ الثمن.. الغريبُ أنني لم أرَ امرأة ترتدي عباءةً فاخرةً كهذه إلا وبدتْ واثقةً جدا من نفسها.. على عكس هذه السيدة التي بدت مهزومة محطمة.

جلستُ في مكتبي وأنا أنتظر منها أن تتحدَّث.. قبل أن تلتفتَ إليَّ وتقول:

- أنت الطبيب النفسيُّ المناوب.. أليس كذلك؟!

سؤالٌ لا معنى له وواضحُ الإجابة.. لكني ابتسمتُ مرة

أخرى وأنا أقول:

- عليكِ أن تتحدثي وتُفرِغي ما بداخلك.. حتى أعرفَ كيفيَّة مساعدتِك.

قالت بألم:

- لا أستطيع أن أُفرغ ما بداخلي.. فأنا ممتلئة باللاشيء!!.. إنني أعيشُ مصيبةً يوميةً.. وأحتاج من يسمعني ويُرشدُني إلى الصواب.. أحتاج النصيحةَ لا العلاجَ.. ولا أعرف لمن ألجأ.. فلا يمكن أن أسمح لقريب أو صديق أن يعرفَ مصيبتي.. أريد شخصًا من خارج محيط حياتي.. دكتور.. ربما لن أصاب بسكتة قلبية.. لكني سأصاب بسكتة نفسية قريبًا إن كان هناك شيءٌ كهذا.. أنا أعرف أن كرةَ الثلج تكبر كما هو معروف.. إلا أنني لا أفهم كيف يحدث هذا لجمرة في القلب!!

قلت بلهجة يشوبُها الاعتذار:

- إن كنت بحاجة لمن يسمعُك.. فهذا دور الاستشاري النفسي.. وليس الطبيب النفسي.. إنه خطأ شائعٌ بين الناس.. هناك استشاريُّون نفسيُّون على درجة عالية من الكفاءة، وبإمكانهم الاستماع إليك.. أستطيع أن أخبرك بأسماء وأرقام هواتف بعضهم إن أردتِ.

ردت بتوسل:

- أرجوك.. لم تكن زيارتي هذه سهلة.. فقد وصلت إلى هنا منذ أكثرَ من ساعة.. لكني ظللت في سيارتي أفكر إن كان من الأفضل الدخولُ والتحدثُ إلى الطبيب النفسي المناوب.. وإن كان بمقدوره الاستماع إليَّ وإرشادي إلى الصواب.. أو أن أعودَ أدراجي وأفكّر بحل آخر.. ثم وجدت نفسي أخيرا أخرج من سيارتي وأسير إلى مكتبك.

تنهدتُ وأنا أُشير لها أن تكملَ.. إذ لم أرغب بخروجها خائبةً وقد بدت أنها تريد أُذنَين مصغيتَين فقط.. خاصة وأنني أجلس شاعرًا بشيء من الملل بعد إنهاء كل مهامي الروتينية.. فأطرقَتْ برأسها ارتياحًا.. وأغمضت عينَيها.. لتقول بحذر:

- لو أخبرتَ الشرطةَ بما ستسمعُه مني.. فتأكد أنني سأُنكر كل شيء.. ولن يكون هناك أي دليل ضدي.

قلت بعقلانية:

- لقد قُلتِها بنفسِك.. كيف سأثبت للشرطة أنني سمعتُ الكلام منك أصلًا؟!.. فبإمكانك الإنكار بكل بساطة.. دعكِ من أنه لا يمكن أبدا للطبيب النفسي أن يكشف أسرار مرضاه.. إنَّ في هذا نوعًا من خيانة الأمانة.. لذا فإن الشرطة لن تأخذَ بكلامي في كل الأحوال.. اطمئني.

أعتذر لكم على تكرار كلامي هذا الذي أذكره في كل جزء تقريبا من مذكراتي.. لا تنسَوا أننا نتحدث عن زائر جديد

في كل مرة.. ومعظمُهم لا يعرف تلك المعلومات.. المهمُّ أنها شعرت بالاطمئنان أخيرا، وأخذَتْ نفَسًا عميقًا.. لتقول بعدها بألم:

- دكتور.. لقد ارتكبتُ جريمةَ قتل!!

نظرتُ إليها مستغربًا.. لتقول بسرعة مدافعةً عن نفسها:

- قتل غير متعمَّد.

لم يكن الأمر بحاجة إلى ذكاء كي أسأل:

- حادث سير؟!

قالت مصحّحةً بِلَوعة:

- بل حادث دهْس!!.. فمنذ حوالي شهر -وفي أول أيام عطلة نهاية الأسبوع- كنتُ في حفل زفاف ابنة صديقة لي.. وكنت من أواخر المدعوين الذين خرجوا بعد أن قضيتُ هناك ساعات ممتعةً، وددت خلالها أن يطول الحفل أكثرَ وأكثرَ.. وقد رحتُ أقود سيارتي بطريقة آلية كَحَالِ كل من اعتاد القيادةَ منذ سنوات.. والساعة تتجاوز الواحدة فجرًا.. شاعرة برغبة عارمة في تبديل ثيابي ومن ثم الاسترخاء على السرير.

سكتَتْ طويلًا وهي تدفن وجهها بين راحتَي كفَّيها.. يبدو أنها تبكي.. فجسدُها يهتزُّ.. بالفعل.. إذ التفتَتْ إليَّ بعينَين ممتلئتين بالدموع وهي تقول:

- مجرد لحظات قليلة جدا شردتُ فيها ولم أنتبه إلى انحراف سيارتي يمينًا، لأصطدم بذلك الشخص الذي يقود دراجتَه بأمان على جانب الطريق.. فعدتُ بسرعة البرق إلى عالم الواقع وأنا أراه يُحذَف بقوة بفعل الاصطدام ويسقط على رأسه.. في حين رأيت دراجته بدورها تطير وتستقرُّ في اتجاه آخر.. حتى إنَّني لم أجد الوقتَ لأضغط على الفرامل.. إنه مثال مجسَّد لحوادث الدهْس التي نشاهدُها في التلفزيون.. إذ وجدتُ الشخصَ ملقىً على جانب الطريق وقد خمدَت حركتُه تماما.. مما أصابَني بحالة هلع جعلتْني أضغطُ على دوَّاسة الوقود إلى درجة أنني كدت أن أقف عليها.. فقط لكي أهرب من فِعلتي السوداء التي تسبَّبَتْ بقتل شخص بريء.

سألتُها باهتمام:

- وكيف عرفتِ أنه مات؟!.. ربما تعرَّض لإصابات فقط.

ردت متجاهلةً سؤالي ودموعُها تنهمر:

- دعني أكمل أرجوك.. لقد هربتُ بسيارتي بعد ذلك عندما انتبهت إلى خلو الشارع من أيَّة سيارات قريبة.. لأصل أخيرا إلى البيت وأنا في أسوأ حال ممكن.. فدخلتُ غرفة النوم لأجد زوجي نائمًا لا يعي شيئا مما يدور حوله.. وإلا كان سيلحظُ على ملامحي كل مشاعرِ الصدمة والخوف والتوتر.. كنت على وشك إيقاظِه علَّه يُساعدُني

وينقذني من تلك المصيبة.. إلا أنني تراجعتُ في اللحظة الأخيرة.. لا أعرف لماذا.. إذ شعرت أنه من الأفضل أن أحتفظَ بالسر لنفسي وألّا يعرف أحد ما حدثَ.

لا أعرف إن كان يتوجَّبُ علي الشعور بالأسف تجاهَها.. أم الغضب.. كونها ارتكبت حادثًا كهذا وفرَّت هاربةً.. و.. كأنَّها قرأَتْ ما بذهني.. إذ أكملَت بخُفوت:

- أعلم أن الأخلاقيّات تحتّمُ علي أن أتوقف لأعرف حالة هذا الشخص.. وإن كان من الممكنِ إنقاذه وأخذه إلى أقرب مستشفى.. لكن صدقني يا دكتور لم يكن الأمرُ يسيرًا.. أنتَ تتحدَّث عن ثوان قليلة جدا حدث خلالها كل شيء.. ومن العسير أن يتخذ أي إنسان ردَّ الفعل المناسب حينها.. إلا إذا كان يمتلك أعصابًا من الفولاذ.. وحتى عندما اتجهت إلى غرفة المعيشة للتفكير بما يتوجَّبُ عليَّ فعلُه.. لم أتمكَّن من الجلوس.. بل أخذتُ علبةَ سجائرِ زوجي.. وأشعلتُ سيجارةً لأملأ المكانَ بالدخان وأنا أسيرُ من الحائط إلى الحائط المقابل، وكأنني أمارسُ رياضةً ما.. علما بأنني لستُ مدخّنةً أصلًا.. ولا أبالغ لو قلت إنها السيجارةُ الأولى التي أدخّنُها في حياتي.. لكن.. الظروف كانت تحتّمُ ذلك.. فأنا مجرَّد سيدة مسالِمة لم أُوْذِ أحدًا في حياتي.. ولا يمكن أن أغفرَ لنفسي أن أتسبَّب بموت أحدهم.. دعكَ من تحقيقات الشرطة والإجراءات القانونية التي ستلتهمُ أعصابي لو كشفوا أمري.. أعلم أنه في النهاية مجرَّدُ حادث

دهْس ارتكبتُه من دون قصد، ولم أكن تحت تأثير الخمرِ أو المخدرات مثلا.. ولا أظنُّ أن عقوبَتي ستكون قاسيةً.. إلا أنَّ هذا لم يكن كافيًا لتهدَأَ أعصابي.

قلت بخُفوت:

- أستطيع أن أقول أنك مررتِ بليلة (نابغيَّة)(6) حقيقية.

أومأت برأسها موافقة، وإن لم أكن أعلم أنها فهمَت ما أقصده أصلًا.. فأكملَت:

- لقد ظل مشهد حادث الدهْس يتكرر في ذهني ليلتَها، لحظة تلوَ الأخرى وبطريقة غريبة.. خاصة حين بحثتُ في مواقع التواصل الاجتماعي وقرأتُ خبر وفاة شخص تعرَّض لحادثِ دهْس في نفس الشارع الذي ارتكبتُ فيه الحادث.. وهذا يجيب على سؤالك السابق ويؤكد أنني تسبَّبتُ بموت ذلك الشخص للأسف.. الأمر الذي جعلَني أُقفِل هاتفي بسرعة.. فقط لأشعرَ أنني بعيدة عن هذا العالَم.. من الناحية النفسية على الأقل.

ظللنا صامتَين بعضَ الوقت.. لأستوعبَ فجأة سبب مجيئها.. مما جعلني أسألها باستنكار:

- هل أنتِ هنا لتسأليني إن كان يتوجَّب عليك تسليم نفسك للسُّلُطات؟!

أطرقَت برأسِها أرضًا وهي تقول:

- نعم.

لم يعجبني هذا الردُّ الغبيُّ.. فأكملتُ باستنكار:

- هل تظنين أنني سأطلبُ منك الانزواءَ والكِتمان وكأنَّ شيئا لم يحدث؟!

ظلتْ تنظرُ إلى الأرض بخجل.. لأقول بحدَّة ندمتُ عليها بعد ذلك:

- أنت تريدين مَن يخبركِ أن الأمورَ ستكون بخير، وأنَّ عليك أن تُنقِذي نفسَك وتُفلِتي من العقاب وأن تنسَي أمرَ فِعلتِك!!.. لن تسمعي هذا مني.. فعليكِ بتسليم نفسِك وتحمُّلِ تبعاتِ الخطأ.. حتى وإن كان غيرَ مقصود.

ردت بحزن:

- لم يكن هناك داعٍ لذلك.. فقد توصَّلت الشرطة إلي!!

لم أتوقَّع هذا الرد على الإطلاق.. فسألتها مبهوتا:

- متى؟!.. وكيف؟!

نظرت إليَّ بشرود للحظة وكأنَّ القصة لم تنتهِ بعدُ.. لتكمل بانكسار:

- ستعرف كل شيء.. كنتُ أقول إنني لم أنم ليلتَها.. بل ظللتُ مستيقظة في الصالة إلى ما قبل الخامسة فجرًا بقليل، شاعرةً أن جسدي يأكل بعضَه من شدة القلق..

قبل أن يصل إلى مسامعي صوتُ رنَّة هاتف زوجي.. من الذي سيتَّصل به في مثل هذا الوقت وبعد ساعات قليلة من ارتكابي لحادث دهْس؟!.. الإجابةُ واضحةٌ بالطبع.. لا أحتاج إلى ذكاء لأعرف أنهم الشرطة.. فهرعتُ إلى غرفة النوم وأنا لم أبدّل ثيابي أو أزيل الماكياج من على وجهي بعد.. لا أحد يملك البال الرائقَ لذلك في مثل هذه الظروف.. حتى لو أثارَ هذا شكوكَ زوجي الذي وجدتُه وقد استيقظَ للتو على صوت الهاتف.. فلمحتُ نظرات الاستغراب على ملامحه وهو ينظرُ إليَّ وإلى شاشة هاتفه.. ليخبرَني أن الاتصالَ من رقم مجهول!!.. لماذا لم يتصلوا بي أنا؟!.. ربما فعلوا.. لا تنسَ أنَّني أقفلتُ هاتفي حال معرفتي بوفاة الضحية.. وكأن تصرُّفي الساذجَ هذا سينقذني.. لكن مَن يلومُني وأنا أمرُّ في لحظات عصيبة كهذه؟!.

التقطَتْ نفسا عميقا.. ثم أكملت:

- وأمام نظراتي المذعورة التي لم أعرف كيف سأفسّرُها لزوجي.. أجاب على الهاتف بصوت طار منه النعاس.. ليأتيه صوتٌ ذكوريٌّ على الطرفِ الآخر يخبره أنه من رجال الشرطة بالفعل.. وأنه يقف عند باب البيت بانتظاره.. إذ كان يأمل أن يردَّ زوجي على الهاتف، وإلا سيضطرُّ أن يضرب الجرسَ ويسبّب لنا حالةً أكبرَ من الذُّعر.. هذا ما أخبرني به زوجي لحظةَ إنهائه المكالمة واستعداده للنهوض

والخروج إلى الباب.. متسائلًا عما يريده منّا رجال الشرطة في مثل هذا الوقت.. أما أنا فكنتُ أعرف السبب جيدا.. يبدو أن أحدَهم رأى الحادث والتقط مواصفاتِ -أو ربّما- رقم لوحة سيّارتي.. أنا الحمقاءُ التي ظننتُ أنني سأُفلتُ بهذه السهولة.. ليتني سلّمتُ نفسي واتجهتُ إلى المخفر مباشرة.. هكذا ظلت الخواطر السوداء تحاصرني.. وأنا أرى زوجي يرتدي ثيابًا لائقة وهو يسير بخطوات سريعة قلقة متجهًا إلى باب البيت.

كان كلامها مفاجئًا بالنسبة لي.. إذ لم أظن أنهم سيكشفون أمرَها بهذه السرعة.. لكن هناك شيءٌ مفقودٌ في القصة.. شيءٌ أجهلُه جعل هذه السيدة تزور مستشفى الطب النفسي..فسكتُّ وأنا أنظر إليها مستفهمًا عن بقية الأحداث.. لتكمل بأسى:

- خرج زوجي.. وظللت واقفة متسمّرة في مكاني للحظات.. لأتذكر أنّني أستطيع متابعة ما يحدث من نافذة غرفتنا التي تطلُّ على باب البيت الرئيسي.. فهرعتُ إليها لأرى زوجي أمام رجلَي أمن لم أنتبه إلى رتبتَيهما.. والدورية تقفُ خلفَهما.. وهم يتحدَّثون ويتحدَّثون، والظلامُ يُخفي ملامحَهم وانفعالاتِهم.. لينتهي كل شيء فجأة.. وترحل دورية الشرطة.. في حين أرى زوجي عائدًا منكسرًا إلى الداخل.. لا شكَّ أنه علم بما حدث.. لماذا لم يقبضوا عليَّ؟!.. لأنه حادث دهْس غير متعمَّد.. وليس جريمة مع

سبق الإصرار والترصُّد.. وهم واثقون أنني سآتي إلى المخفر بنفسي طالما عرفوا مكاني.. هذه الأمورُ لا تحتاج لخبرة أو ذكاء كي أعرفَها.. حسنًا.. ما الذي سأفعلُه حين يواجهني زوجي؟!.. هل أنكرُ كل شيء جملةً وتفصيلًا؟!.. ليتني أستطيع.. لأن ملامحي وتصرُّفاتي ستكشف كذبي سريعا.

وضعت يدها على رأسها وكأنها ما زالت غير مصدقة أنها مرّت بموقف كهذا.. لتقول بلوعة:

- المشكلة أنني لم أجد الوقت لأحسم أمري.. إذ وصل زوجي إلى الصالة الرئيسية حيث أقفُ بقلق ووجهي خلا من الدماءِ.. فنظر إليَّ بأسف ثم أطرقَ برأسه أرضًا وهو يقول: ((عزيزتي.. لقد تُوفي ولدُنا قبل ساعات قليلة في حادث سير!!.. كان يقودُ دراجتَه على جانب الطريق.. فدهَسَه أحدُهم وفرَّ هاربًا!!!.. الشرطةُ ما زالت تبحثُ عن الفاعل و...)).. اختنقتْ الكلماتُ في حلقه.. وانهار باكيًا أمام عينَيَّ المتسعتَين ذهولًا!!.

شهقتُ من قوّة الصدمة.. لأقول بصوت هامس:

- يا إلهي.. هل تعنين أنكِ.. أنكِ....

أومأتْ برأسِها إيجابا.. لتقولَ قبل أن أكمل عبارتي:

- نعم يا دكتور.. أنا قتلتُ ولدي بنفسي.. فقد دهْستُه بسيارتي أثناء قيادته لدراجته.. يبدو أنه كان يشعر بالضغط الشديدِ من المذاكرة لاختباراتِ الثانويَّة العامة.. فأراد

الخروجَ والتنزه بدراجته قليلا رغم حرارة الجو.. لم يكن المسكينُ يعلم أنه متجهٌ إلى حتفه.. وبالطبع لم أنتبه لملامحِه لحظةَ الحادث.. لكنه كان ولدي بالفعل.. وقد تعرَّفَه رجالُ الشرطة بسهولة من إثباته الشخصي الذي عثروا عليه في محفظته.

ظلَلتُ صامتًا محدقا بالسيدة لفترة.. هذا آخر ما توقعتُه!!.. إنها مفاجأة مؤلمة أخرستني تماما.. وأمام صمتي.. أكملَت بكاءَها وهي تقول:

- لا يعرف أي مخلوق بهذا السر الذي يُثقل كاهلي منذ ذلك الحين.. ولا تنسَ أنني تحمَّلت أيضا عناء انهيار زوجي وردودَ أفعال أفراد العائلة بأكملِها.. بما فيها ولدي الآخرَ وابنتي اللَّذان يُكملان دراستَهما الجامعية في (بريطانيا).. جميعُهم يدعون اللهَ -سبحانه وتعالى- باستمرار أن يقتصَّ من هذا القاتل وينتقمَ منه أشدَّ انتقام!!.. أما أنا فكنت أكثر من يحترقُ قهرًا وألمًا وحزنًا كوني عشتُ صدمتَين.. بعد أن قتلتُ أحدَهم دهْسًا بالخطأ.. لأكتشف أن من قتلتُه هو ولدي في واقع الأمر.

أغمضتُ عينيَّ وأنا أطلق زفيرًا عميقًا محاولًا استعادة توازني.. ثم قلت:

- بعد أن عرفتُ القصةَ كاملة.. لا أستطيع أن أطلب منكِ تسليمَ نفسِكِ للسلطات.. لأنكِ دفعتِ ثمنَ الخطأ..

دفعتِه بطريقة فادحة ومؤلمة.. ولو كشفتِ السر.. قد تنهارُ عائلتُك بأكملها.. وربما لن يسامحكِ زوجُك بعد أن خسرَ ولده.. وحتى لو فعل.. سيظل الشَّرخُ موجودًا وستظل الغصة في قلبه طوالَ العمر.. أرى أنكِ من الأفضل أن تحتفظي بما حدث لنفسك!!.. الكتمانُ سيؤذيك نعم.. لكنه سيحميكِ أيضا.. وعليك أن تحصلي على إجازة طويلة من عملك.. ربما السفرُ سيساعدُك.. خاصة لو ذهبتِ للإقامة بعضَ الوقت مع ولدكِ أو ابنتِكِ اللَّذَين يدرسان في الخارج.

قالت بحزن:

- لا أعرف كيف لم أصبْ بجلطة في القلب نتاج ما حدث.. هذا بحدّ ذاته لغز!!

لم أردَّ على كلامِها.. لتُردِف:

- شعورٌ غريبٌ أن أبوحَ بهذا السر وأتحدَّث به بصوت مرتفع لأوَّل مرة.. فأنتَ لا تعرف مدى صعوبة ذلك يا دكتور.. المؤلم أنني كنت دوما أردّد أن الألم الذي يبدأ من العائلة.. لا ينتهي.. من دون أن أظن للحظة أنني سأتسببُ بهذا الألم لنفسي أولا كأُم.. ولجميع أفراد عائلتي.. عموما.. أشكركَ كثيرا على حُسن استماعك واهتمامك.. وسآخذُ بنصيحتك.. فقد ملأ البأسُ قلبي.. رغم أنني ظللت أحاول إقناع نفسي أن لا بأس!!.

ابتسمتُ متعاطفًا لكلامها.. ثم سألتني:

- هل تظن أن رجال الشرطة سيتوصَّلون إلي؟!.

أخبرتُها مغمغمًا أنني أشك في ذلك كون أحد لم يتوصل إلى الفاعل الحقيقي بعد مرور حوالي شهر على الحادث.. لتغمضَ عينيها محاولةً إقناع نفسها أن كلامي صحيحٌ.. ثم.. نهضَت من مكانها وهي تمدُّ يدها لتصافحَني بحزن.. قبل أن ترحل بخطوات منكسرة.. لتكون هذه المرة الأولى والأخيرة التي أراها فيها.. آملُ أن تكون بخير.. فقد أخطأتْ نعم.. لكن الثمنَ كان فادحًا.. فادحًا للغاية.. يبدو أن بعض الهزائمِ لا تُمحى.. وتبقى وصمةَ عار إلى الأبد.. تماما كالخطيئة.

حقًّا إن هذا العالَم غريب.. لا أستطيع أن أتصور أن زوج تلك السيدة سيراها كل يوم.. وسيتشاركان ذكرياتِهما مع ولدهما الراحل.. وسيلعنُ زوجُها أمامَها ذلك الوغدَ الذي دهْس ولدَهما وهرب.. وسيتمنّى أن يتوصَّل إليه رجال الشرطة في أقرب وقت.. من دون أن يعرف السر المروّع.. أن ولده راح ضحيةً لحادث ارتكبتهُ زوجتُه في لحظة سهو.. حادث دهْس.

كوابيس تتجسَّد!!

يحكيها: (أنور)

شوف بقينا فين يا قلبي.. وهي راحت فين..

شوف خدِتنا لِفين يا قلبي.. وشوف سابِتنا فين..

في سِكة زمان راجعين في سِكة زمان..

في نفس المكان ضايعين في نفس المكان..

لا جراحنا بتهدا يا قلبي.. ولا ننسى اللي كان يا قلبي..

كما هي العادة.. لا يفهمُني أحدٌ سواك يا صديقي الوحيد.. أما أغاني هذا الزمن فليست أغان.. بل كلام كاذب قام أحدُهم بتلحينه.. ليتني أسمع تلك الأغاني يوما في أماكن عامة.. فهذا يُشعرني بالانتصار.. وكأنني فرضتُ عالَمي على الجميع.. أتحدَّث عن (عبد الحليم حافظ) الذي لا يفارقُ حياتي اليوميَّة تقريبا.. يغنّي عن حياته.. وحياتي.. فأستمعُ إليه فترة العصر.. في بداية نوبتي المسائية، وقد بدأت الحركة في المستشفى تخفُّ شيئا فشيئا.. أعرف أنني مِملٌّ في نظر الكثيرين.. حتى بتُّ أقرأ سخريَّةَ البعض في وسائل التواصل الاجتماعي.. إذ يتهمونَني بالتكرار وأن لا جديدَ على الإطلاق في أيامي المملةِ بالنسبة لهم!!.. المعذرة لكن هكذا أنا.. وهذه حياتي التي أحبُّها ولا أرغبُ بتغييرها.

كنت ليلتَها أفكّر بالضغوط التي يمارسُها أشقائي علي.. والتي زادت في الآونة الأخيرة لكي أعثر على شريكة حياتي.. وأفكر أيضا بكل الفرص التي أُتيحت لي في الماضي ورفضتُها.. وقد بدأت الحقيقة المخيفة تتجسّد أمامي.. وهي صعوبة الارتباط بفتاة في العشرينيات من العمر.. إذ سأكون بعمر والدها تقريبا.. ثم أحاول طمأنة نفسي بفكرة الارتباط بفتاة في منتصف الثلاثينيات.. خاصة وأنني أعتبر تلك الفترة من العمر مرحلة النضج الحقيقية.. لكن.. حتى لو حالفَني الحظُّ وعثرت على فتاة في هذه السن.. سأفوقها عُمرًا بعقد من الزمان على الأقل.. وربما ستتردّد وتفكر كثيرا قبل الارتباط بي.

غريب هذا التناقض الذي أعيشه.. فأنا لا أخشى على نفسي من الوحدة التي اخترتُها بقناعة تامة.. ولا أخشى حتى عدمَ إنجاب أطفال يحملون اسمي كما يقال دوما.. لكن -وفي نفس الوقت- أشعر بالقلق من قطار الزواج الذي بات يبتعد يوما بعد يوم.. ثم.. الأغنية تتوقف فجأة بسبب ذلك الاتصال الهاتفي الذي أوقفَ تدفُّق أفكاري أيضا.. إنه رقم صيدلانية المستشفى المتواجدة حاليًّا على بُعدِ أمتار قليلة من مكتبي.. فاعتدلتُ في جلستي وخلعتُ نظاراتي وأنا أمسح عينيَّ من دمعة قادمة.. إذ كنت على وشك البكاء.. ثم أجبتُ على الاتصال.. و:

- كيف حالك يا دكتور؟!.. هل تذكر مضادَّ الاكتئاب الذي

وصفته لصديقتي منذ بضعة شهور؟!.. إنها تشكرك عليه، وتؤكّد لك أن حياتها باتت أفضل.. لكنها تشعر بالخمول الشديد.. فماذا تفعل؟!.

ضايقني اتصالُها في واقع الأمر.. فقد أصبحت الاتصالات الهاتفية اقتحامًا لخصوصياتنا في زماننا الحالي.. أفضّل دوما الرسائل النصية حيث نستطيعُ الرد عليها متى شئنا.. المهم أنني أخبرتها أن ترسل تحياتي إلى صديقتها أوّلًا.. وأنني طلبتُ من صديقتها هذه أن تزورَني بعد مرور شهر على استخدام الدواء.. لكنَّها لم تفعل.. أما بخصوص شعورها بالخمول فعليها أن تُجري فحص دم حتى نتأكد من جودة وظائفها الحيويَّة ومعدل فيتامين (د) في جسدها.. فقد يكون هو السبب.. و.. صوت رجولي يتنحنح ثم يقول بكلمات سريعة:

- مساء الخير.

التفتُّ ناحية الباب لأرى رجلًا بدا للوهلة الأولى وكأنه في مثل سِنّي تقريبا.. أو ربما أكبر قليلا.. لكنه أطول قامة.. وكان حليق الوجه، يرتدي الزي الوطني من دون الغُترة والعقال.. وقد ملأ الشيبُ شعره كما هو الحال معي أيضا.. فهذا اللون الرمادي يزحف ليملأ رؤوسنا تدريجيًّا.. ونحن لا ننتبه إلى ذلك إلا لو رأينا صورًا قديمةً لأنفسنا.. حينها سندرك إلى أي مدى تغيَّرنا وكبْرنا.

أنهيتُ المكالمة مع الصيدلانية بسرعة.. ووضعت الهاتف على مكتبي وأنا أدعو الرجل مرحِّبًا للدخول.. وقد بدا للوهلة الأولى وكأنه من النوع الشديد الاعتداد بنفسه في الظروف العادية.. لولا الأزمة التي يمرُّ فيها حاليًّا.. ما هي الأزمة؟!.. سأعرف بعد قليل.. فلا يوجد أي تفسير آخر لتلك النظرات المتوتّرة المذعورة.

سألته إن كان بإمكاني مساعدتُه.. ليقول وهو يدخل ويجلس ببطء على الكرسي المقابل لمكتبي كعادة كل زائر:

- ليتك تساعدُني يا دكتور.. فلو ظل الوضع كما هو عليه لفترة أطول.. ستتحول حياتي إلى جحيم.. إنني أحاول باستمرار تركيب ذاتي عند الاستيقاظ.. لكنها تتهدَّم حين أذهب إلى الفراش!!.. على عكس جميع البشر الذين يعيشون أسعد أوقاتهم وأكثرَها راحةً وقت النوم.. إنني غارقٌ في عمقي الخاص.. وهذا الغرقُ بات يسبب خطورةً على حياتي.

قلت بهدوء:

- أخبرني بما تعانيه من البداية لكي أفهم المشكلة.

زَفر بضجر وكأنه لا يريد البدء من الصفر.. لكن هذا أمر حتمي بالطبع.. ويبدو أنه أدرك تلك الحقيقة البديهية.. فنظر إلى الأرض وهو يقول بحذر لم أفهمه:

- إنني أحمل شهادة الماجستير في العمارة.. مما يعني أنني شديد الاطلاع على التصاميم المعماريَّة ونماذج البناء في معظم الحضارات.. ولا أُخفيك أنني أعشق الطراز القُوطي(7).. وهذا تحديدًا سبب سفري الدائم وزيارتي للعديد من المباني والقلاع التاريخيَّة في أوروبا.. المعذرة.. نسيت أن أعرفك بنفسي.. اسمي (أنور) بالمناسبة.

سألته بطريقة تلقائية:

- ماذا عن حياتك الاجتماعية؟!.

التقط نفسا عميقا ليقول:

- لم أتزوَّج يا دكتور إن كان هذا ما تقصده.

سألته عن السبب كوننا نتشاركُ في هذه النقطة.. فربما يمتلك خبرةً معينةً أستطيع الاستفادةَ منها.. لكن.. شعرتُ أنه يبحث في رأسه عن إجابة لا يعرفُها أصلًا!!.. لذا تجاوزت سؤالي وطلبتُ منه أن يُكمل.. ليقول:

- لقد بدأت المشكلة منذ عدة شهور.. وتبدَّلت حياتي بسببها بسرعة بالغة.. حين راح ذلك الكابوسُ يزورُني فجأة وبصورة مستمرة.. كابوسٌ غريبٌ للغاية أكون خلالَه في إحدى القلاع القديمة المعتِمة.. والمشاعلُ الموجودةُ في كل ركن منها تمنحُ المكانَ رهبةً أكبرَ.. مع العواصف التي

تزأر بالخارج.. ولو كنت قد قرأتَ رائعةَ (ادغار آلان بو) (8) الشهيرة (قناع الموت الأحمر)(9) لفهمتَ ما أعنيه.

من الواضح أنه على قدْر جيد من الاطلاع.. فهذه القصة تحديدًا أعتبرُها قصة الرعب المفضَّلةِ لديَّ رغم سوداويَّتها.. المهم أن كلامَه لفت انتباهي كثيرا.. ويبدو أنه لاحظ ذلك.. فأكمل بهدوء يشوبه التوتر:

- هذه بمثابة اللوحة الخلفية للكابوس فحسب.. وهي أجواء كئيبة تنذر بالويل كما ترى.. ثم أبدأ بعدها بالسير بلا هُدىً في دهاليز وممراتِ القلعة.. أنظرُ حولي باستمرار وانبهار.. وإلى السقف الذي اشرأبَّ لونه بالسواد بسبب الأدخنةِ المنبعثة من المشاعل طوال الوقت، كحالِ كل القلاع القديمة.. لأصل إلى تلك الغرفة الصغيرة التي تشعر وكأنها تحوي كل أسرار الماضي.. إذ تملأ جدرانَها رفوفٌ خشبيةٌ تحوي عشرات الكتب والمخطوطات الصفراء القديمة.. ومكتبٌ أنيقٌ مع بضعة شموع لإنارة المكان.. ولو كان المكان حقيقيًّا لأصبح مزارًا لعلماء التاريخ.

سكت بعض الوقت.. فقلت مستفهمًا:

- إن ما قلتَه لا ينطبق أبدا على الكوابيس حتى الآن.

أكمل بتردُّد غير مفهوم:

- هناك المزيد.. تلك الطفلة التي لا يزيد عمرُها عن 5 أعوام.. تنظر إليَّ بغضب جارف يُضاهي غضبَ الكبار.. لا

يمكن يا دكتور أن تحمل طفلة كل هذا الحقدِ في نظراتها.. فأشعر برعب شديد منها، وأهرع إلى الباب محاولًا الهرب.. لكنَّك تعرف الأحلام جيدا.. دائما يقع فيها المحظور.. إذ أجد البابَ مقفلًا بقفل حديدي امتلأ بالصدأ ويستحيل فتحُه.. من أين جاء القفل؟!.. هذه الأسئلة لا نطرحُها في الأحلام التي لا يحدث فيها أي شيء منطقي عادةً.. وأثناء محاولاتي الفاشلة لفتح القفل.. أشعر بأنفاس عفنة قريبة جدا من رقبتي.. فألتفتُ بذعر.. لأجد ذاتَ الطفلة أمامي.. ووجهُها يحتقن غضبًا، وهي تطلق زمجرة مرعبة.. ثم تمتدُّ يدُها إلى رقبتي وكأنها تريد خنقي.. حينها أصرخُ بكل قوَّتي.. وأستيقظُ من النوم.

سألته بحذر:

- تقول أنك ترى هذا الحلم -أو الكابوس- باستمرار.. أليس كذلك؟!.

ردَّ بانهيار:

- نعم يا دكتور.. ليس أقلَّ من 3 مرات أسبوعيًّا.. وأحيانا أكثر.. حتى بات الذهاب إلى الفراش همًّا أحملُه في قلبي كل يوم.. إن لحظة استيقاظي مرعبةٌ جدا.. فتجدُني ألتقط أنفاسي بصعوبة وقد امتلأ جسدي بالعَرَق.. لقد.. لقد أصبحتُ أتقبَّل الحياة برحابة (صِفر) طوال فترات استيقاظي مترقبًا وقت النوم بذعر.

ابتسمتُ أمام سخريَّته المريرة.. لكني أخفيتُ ابتسامتي سريعًا.. وسكتُ محاولًا تحليل ما قاله.. ثم أردفَ فجأة:

- دكتور.. قبل أن تقترحَ أي شيء.. دعني أخبرك أنني حاولتُ تغيير مكان نومي.. بل وسافرتُ ذات مرَّة إلى أوروبا في إجازة طويلة نسبيًّا.. ومع ذلك ظلَّ الكابوس يُطاردني حتى أثناء سفري.

قلت وأنا أخلع نظاراتي بطريقة تمثيلية:

- الأحلام المتكررة ليست بالأمر الغريب.. فهي تحدث لعدد ليس بالقليل من الناس.. وتستمر غالبا لفترة طويلة من الزمن.. وأسبابُها كثيرة.. لكنها غالبا ما تكون بسبب مشاكل تؤرقك ولم تعثر لها على حل بعد.. أو ضغوطات معيَّنة تعانيها في حياتك.. وعلى الأرجح تزول تلك الأحلام وتتلاشى حين تتجاوزُ الأزمات التي تسببَت بها.. إلا أن بعضَها يبقى ملازماً للإنسان رغم كل شيء.. فيحتاج حينها لعلاج دوائي.. أو جلسات نفسيَّة.. أو حتى إجراء بعض التغييرات في نمط حياته(10)!!.

سكت دون رد منتظرًا مني المزيد.. لأسأله فجأة:

- بالمناسبة.. هل تعرف هويةَ الطفلة التي تراها في كوابيسك؟!.

حسنًا.. إنه يهزُّ رأسه نفيًا.. لكنَّه يكذب.. أستطيع أن أرى هذا في ملامحه.. يبدو أنه لم يتوقَّع السؤالَ.. مما

جعلني أقول بحزم:

- طبيبكَ هو كاتمُ أسرارك.. فلا يمكنُك أن تُخفي عني شيئا إذا أردتَ مساعدتي بحق.

ما زال التردُّد واضحًا على ملامحه.. لكنه حسم أمره ليقول بملامح متجهمة:

- القصة قديمة جدا.. ولا يعلم بها أحد أبدا.. إنها سري الوحيد الذي أحتفظ به لنفسي.

قلت متعاطفا:

- لا أطلب منك إبلاغي بالسر من باب الفضول.. بل لكي أفهمَ تفاصيل مشكلتِك.

أجاب بعدائية:

- لو قمتَ بالإبلاغ عنّي فسأنكر كل شيء.. لن تملكَ أيَّةَ أدلة ضدي.

قلت صراحة من دون اهتمام لتهديده:

- تتحدث وكأنَّك أمام رجل شرطة!!.. إنني طبيبٌ نفسيٌّ.. مهمَّتي علاجكَ فقط.. لا محاسبتك.. ولا يحقُّ لي قانونيًّا الإبلاغ عنك أصلًا، إلا لمنعكَ من ارتكاب جريمة على اعتبار أن هناك ضحية محتملة من الممكن إنقاذُها.. أما ما فعلتَه في السابق فهو يخصُّك أنت وحدَك.

بدا أنَّ اطلاعي على ما يخفيه أمرٌ بالغ الصعوبة عليه.. بل إنه يكره بصورة أو بأخرى أن يتذكر.. يتذكر ماذا؟!.. ذكرى شنيعة من دون شك.. وإلا لما رأيت نظرات الندم الشديدة تلك.. ليسكت بعض الوقت.. ثم يقول بحسرة:

- يجب أن تعرفَ أنني أحملُ على كاهلي ماضيًا شديد السواد.. فقد نشأت في أسرة مفكَّكة عصفَتْ بها المشاكل والخلافات والظروف المادية الصعبة.. حيث تراكمت الديون على والدي واضطرَّ لبيع البيت كي يسدد ديونَه.. بعد أن فضَّل التضحية بي وبوالدتي مقابلَ أسرته الثانية.. والثالثة أيضا.. كونه كان متزوّجًا من 3 نساء.. لا أعرف كيف يجرؤ أحدُهم على تعدد الزوجات وهو لا يملكُ سوى راتبه الذي بالكاد يكفي ليُعيل أسرة واحدة.. تخيل هذه الكارثة وما قد ينتج عنها!!.

لم يكن هناك شيء لأقوله.. فسكتُّ منتظرًا منه الوصول إلى ما كان يخشى الاعتراف به.. ليكمل:

- لقد سكنتُ مع والدتي في شُقَّة متواضعة بضعة سنوات.. قبل أن تُصابَ بمرض السرطان الذي اكتشفناه متأخرًا للأسف.. لتموت بعدَها بفترة قصيرة.. وأجد نفسي في الشارع مشرَّدًا بلا مأوى وأنا لم أُنْهِ دراستي الثانوية بعد.. بعد رفض زوجتيْ أبي استقبالي.. فرحت أعيش كل يوم بيومه.. أحيانا كنت أقضي بعض الليالي عند أصدقاء السوء مقابل سرقات أقوم بها من أجلهم.. أو الحصول

على مبلغ من المال مقابل إيصال كمية من المخدرات إلى أصحابها.. إلخ.. إلى أن وجدتُ نفسي ذات مرة وفي أحد أيام عيد الأضحى أمام تلك الطفلة.. طفلة صغيرة لا أظنُّ أن عمرَها يتجاوز 5 أعوام.. كانت ترتدي أساورَ وقلادة من الذهب.. وكل ما يُطعمني لأسابيع ربما.. وللأسف.. فقد أهملَتْها والدتُها وجعلَتْها تلعب مع الأطفال في إحدى الساحات التي تمَّ استغلالها لوضع المراجيح كما يحدث دوما في الأعياد.. وهناك.. قمتُ باستدراج الطفلة مستغلًّا زحمة المكان.. وأخذتها إلى مواقف السيارات.. وحين بدأتُ بنزع الذهب عنها.. استوعبَ عقلها الصغير ما أنوي فعله.. لتصرخ طالبة النجدة.. فقمتُ بالضغط على رقبتِها لإخراسِها.. ومن ثم خنقِها حتى الموت.. فقط لإتمام سرقتي!!.

لحسن الحظ أنه لا يعرف لغةَ الجسد كما بدا لي.. وإلَّا أدركَ أنني أرغبُ بِرَكْله من الشباك.. لكني اكتفيتُ أن أغمغم بألم متخيّلا المشهد:

- يا إلهي!!.

ردَّ مقهورًا:

- حين هربت بعيدا عن جثَّة الطفلة وبيدي الذهب.. استوعبتُ فداحة جريمتي.. وعرفتُ أي كائن حقير تحوَّلتُ إليه بسبب حاجتي للمال.. فأقسمتُ لنفسي أن أغيّر

حياتي.. وأن تكون هذه آخر جرائمي.. إذ لم يعد ينفع إلقاء حجر في بركة حياتي الراكدة فحسب.. بل كان يجب تجفيفُ البركة بأكملها بعد أن تعفَّنت!!.. فكان أول قرار هو الابتعاد عن صُحبة السوء.. وبَيْع الذهب الملوَّث بالدم كي أبدأ حياةً نظيفةً.

يبدأ حياةً نظيفة بذهب ملوَّث بالدم؟!.. ابتسمتُ أمام هذا التناقض.. ويبدو أنه انتبه أيضا لتناقض كلامه.. فقال مدافعا عن نفسه:

- كان هذا الحل الأنسب.. فإعادة الذهب المسروق يعني القبضَ عليَّ.. والتبرُّع به لن يُعيدَ دمَ الطفلة التي قتلتُها بنفسي.. وبالفعل.. استفدت من ثمن الذهب لتأجير غرفة صغيرة في بيت قديم متهالك مخصَّص للعمَّال.. ومن هناك بدأت أبحث عن وظيفة بسيطة لكنها ساعدتني كي أُنهي دراستي وألتحق بالجامعة.. لأتخرج بتفوق بعد سنوات من العذاب.. وأفتتحَ بعدها مكتبًا هندسيًّا حقق نجاحًا لافتًا بسبب إصراري وجهودي.. دعك من بعض المستثمرين الذين طلبوا شراكتي والاستفادة من خبراتي.. لكني رفضتُ تماما.. فواصلتُ نجاحاتي وحيدًا.. لتستقرَّ حياتي مؤخرا وأبدأ أعيش حصاد سنوات الكفاح الطويلة.. ثم.. بدأ ذلك الكابوس يزورني باستمرار.. حتى أصبح ينغص علي نومي.

وضعت نظاراتي على مكتبي مكملًا المشهد التمثيليَّ الذي يُشعرُني بأنني بطل أو شخصيةٌ مهمةٌ في فيلم.. ثم

قلت:

- تريد أن تقول إن الطفلةَ التي تراها في كوابيسكَ هي نفسُها التي قتلتَها بنفسِكَ منذ سنوات طويلة؟!.

أومأ برأسه إيجابا وهو ينظر إليَّ بحيرة شديدة.. فقلت محاولًا جمع أفكاري:

- ربما هي عقدةُ الشعور بالذنب التي تُلاحقُك حتى الآن.. وقد بدأت تخرج من عقلك الباطن لتزورَك على هيئة كوابيس.

ردَّ من غير اقتناع:

- ولماذا الآن بعد كل هذه السنوات؟!.

قلت ببساطة:

- لأن عمليَّة تأسيس نفسك استنزفَت كل طاقاتِك.. فلَم تكن تفكّر حينها سوى بالدراسة والعمل والوصول إلى ما وصلتَ إليه.. لكن حين بدأتَ تعيش نوعًا من الرفاهية وبدأت تجني حصاد سنوات كفاحك.. أصبح هناك بعض الفراغ في حياتك.. والفراغ مدخل مهم جدا للأفكار السلبية.. فبدأت تفاصيل جريمتك الشنعاء تطفو إلى السطح وتمرُّ في ذهنك أكثر من السابق.. حتى باتت تزورك في منامك.

سألني بنبرة شك:

- ولماذا أرى ذلك القصر القديم بتلك الأجواء المخيفة؟!.

نظرتُ إليه مفكرًا.. ثم قلت:

- ألم تخبرْني أنك تحمل شهادة الماجستير في العمارة وأنك تعشق القلاع والقصور التاريخية؟!.. إن الكوابيسَ -والأحلام عموما- عبارة عن خليط مما عاصرناه ورأيناه في حياتنا.

ابتلع ريقَه بسبب التوتر الذي سيطرَ عليه.. ليسألني:

- وما الحلُّ يا دكتور؟!.

قلت متنهّدا:

- سأصف لك دواءً مضادًّا للاكتئاب.. وآخر لمساعدتك على النوم.. وعليك بمراجعتي بعد شهر من الآن لمتابعة حالتك.

هزَّ رأسه بتفهُّم وهو يقول:

- لا شك أنك تنظر إليَّ الآن باحتقار.

رددتُ صراحةً:

- كما قلت قبل قليل.. مهمَّتي علاجُك.. وليست محاسبتَك.. ثم إنَّ نظرة الناس لك غيرُ مهمة.. المهم نظرتُك لنفسك.

نظر إليَّ بشرود متأملا كلماتي.. ثم أخذ مني الوصفة

الطبية وقد ظننت أن القصةَ ستنتهي عند هذا الحد.. بعد أن وجدتُ تفسيرًا لما يمرُّ به ووصفت له الدواء المناسب.. لكن.. فوجئتُ بـ(أنور) يزورني بعد أيام قليلة وهو بحالة سيئة للغاية.. وقد بدا وكأنه لم يحلق ذقنَه منذ زيارته السابقة.. بالطبع لم أتذكره في البداية بسبب الحالات الكثيرة التي أشرف عليها والكم الهائل من البشر الذين أراهم كل يوم.. فراح يذكرني بنفسه ويتحدث بحرج شديد عن جريمته.. حينها تذكرته جيدا.. و:

- دكتور.. حالتي تزداد سوءًا.. والدواء لم يترك أي تأثير حتى الآن.

قلت مستغربًا:

- لم تمرَّ سوى بضعة أيام.. يجب أن تمنحَ الدواءَ وقتَه.

لم يردَّ.. وإنما رمى بعلبة الدواء المفتوحة أمامي وهو يقول بحنق وذعر:

- ظننتُ أن زيارتي لك هي الحل للتخلص من كوابيسي.. كنتَ بمثابة طوق الإنقاذ يا دكتور.. فاتضح أن طوقَ إنقاذك عبارة عن مشنقة!!.. أنتَ لم تفعل شيئا.. لقد أصبحت الكوابيس تزورني يوميًا من دون انقطاع.. ليس فقط أوقات النوم.. بل حتى في أوقات استيقاظي!!.. أي أنها تتجسد في عالم الواقع أيضا!!.. لا أعرف كيف.. لكن هذا ما يحدث.. وكأنَّني أنفصل عن الواقع وأنتقل بالزمن إلى

القرون الوسطى.. إنَّني أشعر بكل شيء.. حتى بملمس جدران ذلك القصر الكئيب.. وأشمُّ رائحة مشاعل النار التي تضيئه.

لم أرد من قوة المفاجأة.. فأكمل بحنق:

- وتلك الطفلة باتت تتحدَّث إليَّ بصوت مخيف مبحوح.. وأردُّ عليها بالمقابل بحوار طويل منطقي بعيدا عن عالَم الأحلام.. إنها تتحدث عن حياتها التي أضعتُها بسبب جشعي.. وعن عذاب والدَيها بعد مقتلِها.. في حين أبكي ألمًا وأرجوها أن تسامحني.. وأقسم لها أنني مستعدٌّ أن أفعل أي شيء لعائلتها.. لكن الطفلة لا تريد سوى الانتقام على حد قولها.. إن الأمور تتجه إلى ما لا يُحمَدُ عُقباه.. لأنني شعرت ليلةَ أمس بملمس يد الطفلة على رقبتي.. قبل أن أستيقظ بذعر وأنا أتصبَّب عرقًا.. أعرف أن يد طفلة في هذا العمر لا يمكن أن تتسبَّب بقتل رجل بالغ.. لكننا لا نتحدث عن عالَم الواقع.. وإنما عالم الكوابيس حيث نعيش فيه واقعًا مختلفًا.. لا أعرف إن كان ما يحدث يعني موتي قريبًا!!.

كان هذ آخر ما توقعته.. بل إنَّ كلامَه أصاب تشخيصي لحالتِه بالضربة القاضية.. فارتعدتُ في مكاني كحال أي طبيب محترم يُخطئ في تقديم العلاج المناسب.. وقلت بذهول وبشفاه مرتجفة بعد أن فقدت شيئا من ثقتي بنفسي:

- هذا مستحيل.. مستحيل تماما.. عادة يسبب الدواء النفسي بعض التغيير في حياة من يتناوله بالفعل.. كونه يتعامل مع كيمياء الدماغ المعقدة.. فهناك من يشعر بفقدان الشهية أو زيادتها.. وأحيانا بالكسل أو النشاط الزائد.. إلخ.. هذا كله يعتمد على كيفيَّة استقبال الدماغ للدواء في البدايات.. وهو أمر يختلف نسبيًّا من مريض لآخر.. إلى أن يستقرَّ الوضع بعد بضعة أسابيع ويبدأ التأثير الفعليُّ والإيجابي للدواء(11).. أما أن تسوءَ الأمور بالصورة التي تصفها لي.. فهذا ما لا أفهمه!!.

نظر إليَّ باستنكار.. وكأنه يتحسر على وجود أطباء لا يفقهون في تفاصيل الطب.. لم يقلها صراحة.. لكن نظراته قالت ذلك وأكثر.. فحاولت إنقاذ نفسي وإنقاذه.. لأقول بحزم:

- لا يمكنُني أن أقوم بتغيير الدواء الآن.. إذ لم يمر حتى أسبوع على أخذك للجرعة الأولى.. يجب أن ننتظر.. ربما شهر أو أكثر قليلا لنحصل على التأثير المطلوب.

قال بعصبية وإن بذل جهده ليبقى صوته خافتا:

- الوقت ليس في صالحي أبدا.. لقد أخبرتك للتو أنني شعرتُ مساء أمس بملمس يد الطفلة على رقبتي لأول مرة.. كما أن هذا الكابوس اللعين بات يزورني يوميًّا أثناء نومي.. وأثناء استيقاظي كذلك.. وكأنه يتجسَّد في عالَم

الواقع.. ألا تفهم؟!!.

تجاوزت إهانتَه.. فليس على المريض حَرَجٌ.. وهذا ما جعلني أقول بيأس أمام نظرات الذعر التي أراها واضحةً في عينيه:

- ربما ساءت حالتُك بعد أن أخبرتَني بحقيقة فِعلَتِك.. كونها المرة الأولى التي تخبرُ فيها أحدًا بهذا السر كما أكّدت لي في المرة السابقة.. أما أن تتجسَّد الكوابيسُ في عالَم الواقع كما تقول.. فهو المستحيل بعينه.. إنها أعصابُك المتوترة فحسب.

ردَّ ثائرا في وجهي:

- ما تصفه بالمستحيل يحدث لي واقعًا.. أنا أقول لك بثقة إنَّ كوابيسي باتَت تتجسد.. إنَّني أغيبُ عن العالَم أحيانا كثيرة، وهو ما لم يكن يحدث في الماضي القريب.. ولا أعني بذلك أنني أفقد وعيي.. بل أغيبُ عن العالم أثناء وعيي ولعدة ساعات.. لأجد نفسي في ذلك القصر القديم حيث تتكرر نفس الأحداث التي سردْتها لك عن تلك الطفلة.. ثم أجدُ نفسي عائدًا فجأة إلى عالَمنا.. وكأنَّني أسافر عبر الزمن إلى الماضي.. لا يمكن أن يكون كل هذا وهما.. ثم هناك ملمس يد الطفلة وهي تحاول خنقي أكثر وأكثر في كل مرة.

قلت بإصرار:

- استمع إلى نفسك جيدا يا (أنور)!!.. فما تقوله لا يمكن أن يحدث.. إنها فقط حالتك النفسية السيئة.. وعقلك الذي يجعلك مقتنعا تماما بما تمر به من أوهام.. تذكر أن حالتنا النفسية مرتبطة بعقولنا.

كان يبدو تائهًا.. فهو نفسه لا يعرف سبب هذا التطور المخيف في حياته.. ليقول بصوت مضطرب:

- كيف سأنام اليوم؟!.. إنني أشعرُ بالرعب من مجرد الذهاب إلى السرير.. إنني أخشى حتى ساعات استيقاظي بعد التطورات الأخيرة.. فما الذي يضمن أن الطفلة لن تضغط على رقبتي أكثر وتخنقني حتى الموت؟!.

قلت متنهدا:

- حاول أن تغير مزاجك.. خصوصًا قبل النوم.. افعل أي شيء لطرد الأفكار السوداء من رأسك.. ولا تنسَ أنَّ كل ما تراه في كوابيسك هو نتاجُ أفكارك في نهاية الأمر.. عليك فقط الاستمرارُ في تناول الدواء.. وأن تصمدَ في الأيام القادمة.. وستشعر بالتدريج أنك أفضل حالًا.

أطرق برأسه يأسا وهو يغمغم بكلمات مقتضبة يخبرني فيها أنه سيزورني بعد شهر من الآن لو ظل على قيد الحياة!!.. وكنوع من التشجيع.. منحتُه بطاقتي التي تحوي معلوماتي الشخصية.. وطلبت منه التواصلَ معي متى شاء.. علَّني أستطيعُ شدَّ أزره لو مر بلحظات انهيار كهذه..

إلى أن يجتاز تلك المرحلة مع فعالية الدواء.

وبكل أسف.. لم أكن أدرك مدى حقيقة ما يقوله لي.. رغم أنه تواصل معي عبر إحدى وسائل التواصل الاجتماعي خلال الأيام القليلة التالية.. مؤكدا أن حالته تزداد سوءا.. وأنه بات ينفصل عن الواقع كثيرا.. مما جعله يهمل مكتبه الهندسي الذي كافح طويلا لتأسيسه.. وأن يد الطفلة كادت أن تخنقه حتى الموت أثناء كابوسه الأخير رغم أنه كان مستيقظا!!.. وهي عبارة تحوي تناقضًا كبيرًا لو لاحظتم.. قبل أن يعود إلى عالمنا صارخًا بهلع وهو يتحسَّس رقبتَه.. لكني ظللتُ مصرًّا على منطقي العلمي محاولًا من خلال رسائل صوتيَّة مطمئنة أن أشدَّ من أزره.. إلى أن توقفَتْ رسائلُه.. ونسيتُ الأمر بدوري مع مرور الأيام وزحمة العمل.

بعد حوالي أسبوعَين من تلك الحادثة.. كنت أعبثُ في هاتفي.. أُلغي بعض الصور بملل وأمحو بعض الرسائل كما نفعل جميعنا.. حين وجدتُ محادثاتي مع (أنور).. وتذكَّرت كل شيء فجأة.. فتواصلتُ معه للسؤال عنه.. لكني لم أجد أيَّةَ إجابة خلال الساعات التالية.. ولم أجد حتى ما يؤكد أنه شاهد الرسالة أصلًا.. لأتصل به.. وإذ بهاتفه مغلق!!.

أثار هذا فضولي الشديد بالطبع.. ففعلت شيئا لم أفعله منذ زمن طويل.. إذ تركتُ رسالةً نصية لضابط شرطة

تربطُني به معرفة جيدة بحكم العمل والحالات التي يتمُّ تحويلها لمستشفى الطب النفسي من قِبل وزارة الداخلية.. ومنحتُه رقم هاتف (أنور).. طالبًا منه أيَّة معلومات يستطيع جلبَها عن هذا الرجل.

في اليوم التالي.. استلمتُ رسالة نصية من ضابط الشرطة نفسِه.. يخبرُني فيها أن (أنور) توفّي في نفس تاريخ آخر رسالة نصيَّة أرسلَها لي!!.. وأنَّ في موته شبهةً جِنائية كونه مات مختنقًا!!.. لكن رجال الشرطة لم يتوصَّلوا إلى ما هو أكثر من ذلك.

حسنًا.. هذه صدمةٌ مخيفةٌ لم أتوقعها أبدا.. ولا أنكر أنني أُصبتُ برعشة جسديَّة وكأن درجة الحرارة في غرفتي انخفضَت إلى الصفر.. رغم أن العرقَ احتشد على جبيني في تناقض غريب.. ثم بدأتُ أحاول أن أستذكر لقائي الثاني بـ(أنور).. وكل كلامِه الغريب والتطورات التي حدثت معه عن كوابيسه ودخولها مرحلة التجسُّد على أرض الواقع كما كان يؤكد.. عندها فقط.. قفز إلى ذهني تفصيلٌ دقيقٌ للغاية.. كنتُ أريد أن أسأل (أنور) وقتَها.. لكنه شتَّتَ انتباهي بسبب غضبه وإهانته لي.. مما جعلني أنسى الأمر برمّته آنذاك.

ظللتُ أفكر بضعة أيام مستذكرًا هذه القصة الغريبة.. وذلك التفصيل الدقيق الذي سأذكره لاحقا.. عندها خرجْت بنظرية غريبة للغاية!!!.. لكنها تجيب على كل تساؤلاتي..

خاصة مع الاكتشاف الجديد الذي وقعتُ عليه وأكَّد نظريَّتي إلى درجة كبيرة.. ما هو الاكتشاف؟!.. وما هي النظرية؟!.. سيتَّضح كل شيء قريبًا.

حسمت أمري بعد حوالي أسبوع.. وهنا كان لا بد من اتخاذ الخطوة التالية والمواجهة.. ففي نهاية إحدى مناوباتي الصباحية.. وحين بدأ المستشفى يشهد حالة الهدوء التي تستمر طوال الفترة المسائية كما أذكر لكم دوما.. أمسكت بهاتفي.. واتصلت بأحدهم لأطلب منه بنبرة ودّية أن يزورني في مكتبي.

بعد دقائق قليلة.. دخلَتْ غُرفتي سيدة ممتلئة الجسد.. في مثل سني تقريبا.. ترتدي حجابا أبيض اللون.. مثل لون رداؤها.. نعم.. إنها صيدلانية المستشفى.. فقد استجابت لاتصالي.. ودخلت مكتبي وهي تقول بمرح:

- من النادر جدا أن تطلب مني أو من الزملاء زيارتك في مكتبك.. هل الأمور على ما يُرام؟!.

نظرت إلى الصيدلانية بشرود وأنا أقول بنبرة غامضة:

- المعذرة.. أردْت الاستفسار عن أمر بالغ الأهمية.. لقد لاحظتُ أمرا غريبا.. والواقع أنني لم أكن لأنتبه له لولا بعض الحظ.. أو فلنقل سوء حظك!!.

إنها تشعر بالقلق.. وقد اختفَت ابتسامتُها المصطنعة.. أعتقدُ أنني على الطريق الصحيح.. فأكملْت بجرأة:

- لقد اتصلتِ بي منذ أيام تسألينني عن علاج إحدى صديقاتِك.. أتذكَّر جيدا أن المكالمة لم تَطُل أكثرَ من دقيقتين ربما.. حيث اضطررتُ لإنهائها بعد دخول أحد المرضى لمكتبي.. لكن.. حين عبثتُ في هاتفي بعد ذلك.. ورأيتُ اسمك في قائمة المتَّصلين.. اكتشفت أن مدَّة المحادثة المسجَّلة بيننا تجاوزَت الساعةَ تقريبا.. أي أنَّك -ولسبب ما- لم تُنهي المكالمةَ حين دخل ذلك المريض.. مما يعني أنك استمعتِ إلى كل ما قاله.. أليس كذلك؟!.

يبدو أنني أصبتُها بمقتل.. فهي لم تتوقَّع أبدا ما قلته للتو.. لقد تصلَّبت في مكانها ذعرا ولم تتحرَّك أبدا.. لكني أكملتُ رغم ذلك:

- أتذكَّر أنني وصفتُ للسيد (أنور) دواءً محددًا.. لكنه لم يحصل عليه في نفس اليوم.. بل في اليوم التالي رغم توفر الدواء في الصيدلية.. لقد تأكدت من ذلك بنفسي من خلال البرنامج الآلي للمستشفى.. فلماذا فعلت ذلك؟!.

امتلأ وجهُها بكل علامات الارتباك.. وبدأت ترتجف بوضوح.. لأجيب أنا نيابةً عنها:

- لأنكِ منحتِهِ دواءً آخر.. أليس كذلك؟!.. أتذكر أنَّه رمى العلبة المفتوحة على مكتبي وهو يتحدَّث بعصبيَّة ويخبرُني أن الدواء لم يحقّق أيَّة نتائج مرجوَّة.. وأن الأمور متجهة إلى الأسوأ.. وأنه يشعر وكأن كوابيسَه تتجسَّد!!.. أتذكر

أنني رأيت بنصف عين وبذهن شارد جزءًا صغيرًا من شكل الأقراص في علبة الدواء.. لم يكن انتباهي كاملًا للأسف بسبب انفعاله الشديد آنذاك.. خاصة وأن العلبةَ كانت بالفعل علبةَ الدواء الذي وصفتُه له.. لكن المحتوى كان مختلفا.. أظن أنكِ قمتِ باستبدال الأقراص داخل العلبة بأقراص لدواء آخر.

سكتُّ لأرتّب القصةَ في ذهني أكثر.. في حين أرى الصيدلانية وقد استسلمَت لاتهامي:

- بشيء من الخيال.. وبسبب قصته الغريبة التي ذكر خلالها أن كوابيسَه باتت تتجسَّد على أرض الواقع.. وبسبب وفاتِه كما علمتُ من رجال الشرطة.. أستطيع أن أخمّن أنك منحته أقراصَ هلوسة جعلت حالته تسوءُ أكثرَ وأكثرَ.. أعرف أن لأدوية الهلوسة مفعولًا مرعباً يجعل الإنسان يشاهد أشياءَ لا وجودَ لها ويقتنع تماما بوجودها في نفس الوقت(12).. بل وحتى الأعمى سيستطيع أن يرى خيالاتِه بكل وضوح لو تناول حبوبًا للهلوسة(13).. فدماغه هو الذي يرى حينها.. وليس عيناه.. هذا ما جعل (أنور) يرى خيالات مرعبة ويشعر بيد الطفلة وهي تُضيّق الخِناق على رقبته.. إلى أن قضى نحبَه بسبب خيالاته.. لأنك تعرفين جيدا أن الدماغ يخدعُ الإنسان.. ولو ظنَّ أحدُهم أنه يختنق -كما حدث مع ذلك المسكين- فسيصدقُ أوهامه وسيختنقُ حتى الموت.

كان كلامي صاعقًا.. حتى أن الصيدلانية لم تحاول الإنكار.. وإنما أطرقت برأسِها أرضًا وقد احتقن وجهُها بالدماء.. فسألتُها باهتمام وفضول:

- أخبريني.. لماذا فعلتِ ذلك؟!.. لماذا أبدلتِ الدواء؟!.. فقد ارتكبتِ جريمة قتل بطريقة غير مباشرة.

انهمرت الدموعُ من عينيها.. وظلت تبكي وتفرغُ أنفها بمناديل علبة المحارم الورقية على مكتبي.. حتى استهلكَتْها تقريبا.. وأنا أنظر إليها وأنتظر منها التوضيح بعينين صارمتَين.. لتقول بعد لحظات:

- لا أعرف لماذا تجسَّستُ عليك ذلك اليوم.. فحين أنهيتَ أنتَ المكالمةَ بسبب المريض الذي دخل مكتبك.. نسيت أن تضغط زر إنهاء الاتصال.. وربما وضعت هاتفك مقلوبا على المكتب.. لأنك لم تنتبه أن المكالمة ما تزال قائمة.

كلامُها صحيح.. فحين يدخل غرفتي أي مريض.. أحاول منحَه كل اهتمامي.. وأضع هاتفي مقلوبًا على المكتب كي لا أنظرَ إلى الشاشة.. المهمُّ أنها أكملَت:

- بصراحة أصابني فضول شديد منعني من الضغط على زر إنهاء الاتصال.. وأردت -ولو لمرة واحدة- أن أستمع إلى مشاكل أحد المرضى.. فلِلتجسُّس لذَّةٌ لا توصف.. هذه طبيعة بشرية.. ثم فُوجئت بارتكابه لجريمة شنعاء بحق

طفلة بريئة.. مما أثار جنوني.

قلت هامسًا وأنا أعضُّ على شفتي غضبًا:

- هذا لا يبرّر أبدا استبدالَ الدواء وارتكابك لتلك الجريمة.. فليست مهمَّتُنا أن نحاسب المرضى.. أنت تعرفين ذلك جيدا.

قالت وهي تنظر إليَّ بقهر:

- حتى لو كانت الطفلةُ التي قتلَها هي ابنتي؟!!!.

خفق قلبي بقوة!!.. وشعرت بدهشة هزتني في مقعدي!!.. فوضعت يدي على رأسي.. وتراجعت في مقعدي وأنا أردد بذهول:

- هذا مستحيل.. هل تقصدين أن.. أن....

لم أكمل عبارتي.. فأكملَتْها هي:

- نعم يا دكتور.. لقد قتلَ أحدُهم ابنتي منذ سنوات طويلة في أحد أيام عيد الأضحى.. ولم نتوصَّل إلى القاتل أبدا.. فقد عثر رجال الشرطة على جثَّتها بالقرب من مواقف السيارات عند ساحة الأطفال التي تحدَّث عنها ذلك المجرم.. إذ كانت بكامل زينتِها يومَها.. وبسبب حماقتي وقلَّة خبرتي آنذاك.. تركتُها تلعب مع الأطفال بعيدا عن أنظاري.. ومن دون أن أخلع عنها الذهب الذي كانت ترتديه.. إلى أن استدرجَها هذا الحقير وخنقَها حتى

الموت.. لتظلَّ القضية معلَّقةً منذ ذلك الحين.. تخيل أنها المرة الوحيدة في حياتي التي تجسَّستُ فيها عليك.. وبسبب ذلك عثرت على قاتل ابنتي الذي قادتْه الأقدارُ إلى مكتبك.. أنا واثقة أنها إرادةُ السماء التي أوصلت المجرم إليَّ.. لقد كان الأمر مروعا.. خاصة وأنَّه لم يكن بمقدوري الإبلاغ عنه كما تعلم.. فأنا أدركُ جيدا أن كل ما يُقال في غرفة الطبيب النفسي يعتبر من أسرار المرضى.. ولا يحقُّ للطبيب أن يُفشي أسرار مرضاه أبدا.. ولن يؤخذ أصلا بكلام المريض لو قام الطبيب بالإبلاغ عنه.. لذا تستطيع أن تتخيل حجمَ البغض والقهر في قلبي حين جاءني المدعوُّ (أنور) بوصفتك الطبية ليطلب الدواء بعد أن سمعت كل حديثه معك.. لقد حاولت كسب بعض الوقت لأفكّر بما يجب فعله.. فأخبرتُه أن الدواء غيرُ متوفّر وأن عليه أن يأتي غدًا حيث سيكون متوفرا بكل تأكيد من مخازن وزارة الصحة.

سألتها بدهشة:

- ماذا لو كان قد ذهب واشترى الدواء من مكان آخر؟!.

قالت بلوعة:

- كنت سأبحثُ عن وسيلة أخرى للانتقام.. لن يكون العثور على (أنور) صعبا بعد أن عرفت اسمه كاملا مع رقم هويته.. حين منحَني إثباته الشخصي كي أُدخل بياناته في

السجل الآلي للمستشفى.. كما هو الحال مع أي مريض أقوم بصرف الدواء له.

سكتَتْ وهي تُفرِغ أنفها مرة أخرى.. في حين نظرتُ إليها مشدوهًا غير مصدق ما أسمعه.. لتكمل:

- أتذكر أنني قضيت اليومَ بأكمله أفكر بما يجب فعله.. إلى أن خطرَت في ذهني هذه الفكرة التي ظننتها عبقرية آنذاك.. أن أدمّر حياةَ الرجل من دون أن يعلم.. فارتكاب جريمة قتل بطريقة مباشرة ليس بالأمر الهيّن.. حتى لو كانت انتقاما لمقتل طفلتي.. دعك من خوفي الشديد من افتضاح أمري.. ففكرت بأقراص الهلوسة التي ستودي به إلى الجنون.. أو تجعله يلجأ إلى الانتحار.. أي أنَّ حياتَه ستنهار قبل أن يكتشف حقيقةَ الأقراص التي يتناولُها.. أما كيفية حصولي على تلك الأقراص.. فهو ليس بالأمر العسير على صيدلانية تعمل في هذا المجال منذ سنوات طويلة.. إن لي علاقاتي الخاصة بصيدليات وجهات طبية كثيرة.

يا لها من صدفة غريبة فعلًا.. بعض الصُّدف تفوق الخيال وتجد أنها لا تصلحُ حتى لكتابتها كقصة كونها تضعف الحبكة الروائية رغم واقعيَّتها.. أتذكر أنني قرأتُ ذات مرة عن قرية في (بولندا) لم يُولد فيها أي ذكر منذ أكثر من 12 سنة.. وكل مواليدها إناث.. إلى درجة أن عمدة القرية وعد بتقديم جائزة لأي امرأة تُرزق بطفل ذكر.. ولم يعرف أحدٌ سرَّ

هذه الصدفة الغريبة(14).. نعم.. كما ذكرْت.. إن بعض الصدف تتحدى الخيال نفسه أحيانا!!.. تماما كما حدث في قصتنا هذه.

قلت بحزم وبعد صمت طويل:

واجبي يُحتّم الإبلاغَ عنك.. إنها جريمةُ قتل.. وأنت لست مريضتي كي أخفي عن رجال الشرطة فِعلتك.. إنك موظفة في المستشفى.. وما فعلتِه يُعد جريمة.. وخيانةَ أمانة.

ردت بألم:

- دكتور.. أرجوكَ لا تدمّر حياتي.. لقد انتقمتُ من قاتل ابنتي فحسب.

قلت بصرامة غير مبال بدموعها:

- لا يحقُّ لك محاكمة الناس وعقابهم بنفسك.. هناك قانون ورجال شرطة.. نحن لسنا في غابة.

أغمضَتْ عينيها بعض الوقت وكأنها تَزِنُ الأمر بعقلها.. لأُفاجأ بها تعتدلُ وتقول بكبرياء:

- لو فعلت.. سأُنكر كل شيء.

قلت متهكما:

- أقراص هلوسة في علبة أدوية مختلفة وغير مخصصة لها.. ثم تخبرين الشرطةَ أن هذا خطأ غير مقصود؟!.

ردت ببرود:

- سأدَّعي أنني لا أعرف شيئا ولست مسؤولةً عمَّا حدث.. لقد منحتُ المدعو (أنور) الدواء حسب وصفتك.. وقد خرجتْ علبةُ الدواء مِن ذمتي حين استلمَها وخرجَ من المستشفى.. فربما يكون هو مَن حصل على أقراص الهلوسة من مكان آخر، ووضعَها في العلبة لسبب ما.. أشياء كهذه تحدثُ ولا يمكن إصدار أحكام مؤكَّدة بشأنها!!.

شعرت بصفعة قوية على قفاي!!.. كلامُها صحيح.. لقد أعماني منطقي واكتشافي للحقيقة.. فلا يمكن إثبات كلامي للشرطة.. بل وكان بإمكان الصيدلانية إنكار هذه الاتهامات أمامي أيضا لولا قوة المفاجأة حين كشفت أمرها.. يبدو أنها قامت بالتفكير قليلا.. وانتبهت إلى تلك الحقيقة البديهية التي غفلت عنها للأسف.. أنّ لا شيء يدينها على الإطلاق.

كان هذا آخر حديث يجري بيننا.. فقد أنهَت الصيدلانية كلامها ونهضَت لتسير بشموخ خارجة من مكتبي.. ولم أرَها بعد ذلك سوى مرات قليلة للغاية كانت تتجنَّب خلالها النظرَ إليَّ.. ثم عرفتُ بعد شهور أنها انتقلت إلى مستشفى آخر بناء على طلبها.

أما أنا.. فقد ظللتُ أطرح التساؤلات عن تلك القصة

الغريبة.. إنني لم أجرب عاطفة الأبوة أبدا بطبيعة الحال.. وأعرف أن عاطفة الأمومة أقوى بكثير.. لا أدافع هنا عن الصيدلانية.. لكني أتساءل.. كيف كان سيمكنُها أن تأخذ حقَّها من (أنور) إن لم يكن بهذه الطريقة؟!.. أشعر وكأنها لم يكن لديها خيار آخر.

إنها معضلة أخلاقية لا أجد لها حلا.. فبعضكم قد يؤيد ما فعلته الصيدلانية.. والبعض الآخر سيرفض ذلك.. ستختلف الآراء من شخص لآخر من دون شك.. وستبقى حقيقة واحدة.. أن الصيدلانية ثأرت لمقتل ابنتها.. بعدما سمعت حديث (أنور) كما تبين في سياق القصة.. وعرفَت أنه هو نفسه القاتل الذي ظلت تبحث عنه لسنوات طويلة وقد قادتْه الظروف إليها في صدفة بالغة الغرابة.

الدُّمية!!

تحكيها:

(وسن) و (مرام)

اقتربَت نهايةُ النوبة الصباحية بعد يوم مرهِق إلى حد ما.. قابلت خلالَه العديد من المرضى، وكتبتُ العديدَ من الوصفات الطبية.. وتلقيت العديد من الاتصالات الهاتفية الخاصة بالعمل.. أحدُها من قريب لي يرغب باستغلال صلة قرابتنا للحصول على تقرير من أجل التقاعد الطبي.. فاعتذرت له بكل احترام مؤكدا أنني لا أجامل أبدا على حساب عملي.. ثم اتصال من أحد أشقائي يلومُني على تصرفي هذا.

جلستُ بعد ذلك في مكتبي باسترخاء منتظرًا انتهاء ساعات العمل والعودة إلى شقتي للوقوفِ تحت شلالِ المياه الساخنة، ومن ثم الاسترخاء على السرير.. فما زالت هناك ساعةٌ.. أو ربما أكثر قليلا.. علي فقط الانتظار.. أفكر بكل هذا وأنا أنظرُ في شاشة هاتفي باحثًا في الحسابات الإخبارية عن أيَّة أخبار جديدة.. قبل أن:

- مساء الخير.

اعتدلتُ في جلستي وخلعتُ نظاراتي وأنا أنظر إلى القادم.. لأجد تلك الفتاة.. أو.. فتاتين في الواقع!!..

فرحّبت بهما وطلبت منهما الجلوس.. ثم رحت أنظر إليهما للحظات قليلة.. لأجد أنهما في أوائل العشرينيات ربما.. وقد صبغَتْ كل منهما شعرها بلون مختلف.. أنا لا أفهم في الأناقة النسائية كثيرا.. لكن شعرَ كل منهما كان مائلا للون الأشقر وبدرجة متفاوتة.. كما بدا عليهما الترف الزائد.. وكأن الحياة منحتهما كل ما ترغبان به رغم الجدية التي بدت عليها ملامحهما.. أما جمالهما فكان بارزا يجعل المرء ينظر في حيرة إلى كل منهما.. فقط ليقرر من منهما الأجمل.

لماذا لم أتأثّر بجمالِهما كما كان الحال في الماضي القريب؟!.. للسن أحكامُه كما يبدو.. إنني أتغيَّر بسرعة.. وهذا ما أعادني إلى الحزن الذي بات يعتريني مؤخَّرًا.. لقد كبرت!!.. ويبدو أن قطار العثور على فتاة الأحلام -إن كان هناك قطار كهذا- سيفوتُني.. ولا أظنُّ أنني سأدركُه.

سألتُهما باهتمام محاولًا التركيز في عملي:

- كيف بإمكاني مساعدتُكما؟!.

ردت إحدى الفتاتَين بملامح متجهمة:

- لا نعاني أي أمراض نفسية إن كان هذا ما تظنُّه.. ولا نعرف الكثير عن دهاليز علم النفس.. لكني ظللتُ أفكر مع صديقتي طوال الأسابيع الماضية بالتجربة المرعبة التي مرَرْنا بها.. لقد حاولنا أن نتركَ ذلك اليوم المشؤوم خلفَنا

وأن نعود إلى حياتنا الطبيعية.. لكنَّا فشلنا للأسف.. ربما لأننا بحاجة إلى من يسمعنا ويصدقّنا ويفسر لنا ما حدث.. إن كان هناك تفسير أصلا!!.

القصة دائما مذهلة لا تُصدَّق.. وفي النهاية يتَّضح أنها قصة عاديَّة لكنها مؤلمةٌ ربما.. سوى بعض القصص الغريبة فعلًا والتي أسردُها لكم في مذكَّراتي.. عموما.. ظللتُ أنظر إلى الفتاتَين باهتمام.. لتكملَ نفسُ الفتاة التي بدأت الحديث:

- إنَّ ما حدث جعلنا نخشى العالَم.. ونخشى الظلام.. ونخشى حتى أن نكون وحدَنا.. ولا أبالغ لو أخبرتك أنني أبحث في الدولاب وتحت السرير كل يوم.. وأغلق باب غرفتي بالمفتاح رغم وجود أفراد عائلتي في الفيلا.. فقط لكي أشعر ببعض الأمان.. حتى الذهاب إلى دورة المياه أصبح مهمة صعبة بالنسبة لي.. لأن هذا يعني أنني سأكون وحيدة.. وحينها ستتفجر الخيالات في رأسي وأتذكر ما حدث.. والأمر كذلك مع صديقتي كما أكدت لي بنفسها.. وكأنك شاهدت للتو فيلمًا مرعبًا للغاية جعلك تخشى البقاء وحيدًا.. أعلم أن فقدان الذاكرة مرض.. لكنه بالنسبة لنا أصبح أمنية.. وهذا ما جعل صديقتي تقترح أن نلجأ إلى مستشفى الطب النفسي علّنا نجد من يساعدُنا.. فبحثنا في خرائط (Google) كوننا لا نعرف مكان المستشفى ولم نزرهُ من قبل.. وها نحن الآن أمامك!!.

لم أرغب بإخبارها عن الفارق بين الطبيب النفسي والاستشاري النفسي.. ربما لأنني وددت الاستماع لمشكلتهما.. آملا أن يمر الوقت كي أعود إلى شقتي بعد هذا اليوم المرهق.. فأشرت لها أن تتحدث.. لتبتسم بتوتر وهي تقول:

- اسمي (وسن) بالمناسبة.. وهذه (مرام) صديقتي منذ الطفولة.. وأنا -بالمناسبة- لا أهتمُّ لصداقة عمرها 20 عامًا.. بل الصداقةُ التي عمرُها 20 موقفًا إن كنتَ تفهم ما أعنيه.. ومواقف (مرام) معي فاقت ذلك كثيرا.. فما بيننا ليس فقط عِشرةُ عمر.. وإنما عِشرةُ (عطِر) أيضا إن صحَّ التعبير.. والصديق الحقيقي يا دكتور هو ذلك الإنسان الذي تقوم معه بشيء ممل.. ومع ذلك تستمتع.. هكذا حالي مع (مرام).. كما تربط عائلتينا أيضا علاقة قوية قديمة تعود إلى ما قبل ولادتنا بسنوات.

نظرَتْ إليها صديقتُها بامتنان يشوبُه التوتر.. في حين أومأتُ برأسي مبتسمًا لهذه الكلمات الجميلة وأنا أطلب منها أن تكمل.. لتقول (وسن) بصراحة:

- يجب أن تعلم أولًا أننا ننتمي لعائلتَين ثريَّتين جدا.. ولو أخبرتك بأسماء عائلتَينا لفهمت ما أعنيه.. وأنا لا أقول هذا الكلام تباهيًا.. بل لتعرف فقط حجم الفراغ الذي قد تعيشُه فتاتان ثريَّتان لا تعملان بعد أن أنهتا دراستَهما الجامعية منذ فترة قصيرة نسبيًّا.. فنحن لن نبحث عن وظائف بكل

تأكيد.. إذ ستعمل كل منَّا في شركة عائلتها الخاصة بعد شهور من الآن.. وبعد أن نأخذ أكبر قسط ممكن من الراحة بعيدا عن المسؤوليات.

لم أعقّب على كلامِها.. واكتفيتُ بالنظر إليها وهي تعتدل في جلستها وتنظر إلى (مرام).. وكأنها تطلب من صديقتِها أن تشاركَها سرد المشكلة.. لتستلم (مرام) دفةَ الحديث وتقول:

- وبسبب وقت الفراغ والملل.. بدأنا رحلةَ البحث عن هواية.. إلى أن قادتنا الصدف إلى حساب على أحد مواقع التواصل الاجتماعي لفتاة كويتية اشتهرت بصناعة دمى لأطفال رُضّع تبدو قريبة جدا من الحقيقة.. حتى إن شركات الإنتاج التلفزيوني باتت تتعامل معها بصورة رسمية في الأعمال الدرامية بدلا من الاستعانة بأطفال حقيقيين(15).. فشعرنا بالانجذاب لهذه الهواية.. وتواصلنا مع الفتاة التي وافقت مشكورة على تدريبنا.. وبدأنا مرحلة تعلُّم صناعة الدمى في الأسابيع التالية.. إلى أن أتقنّا صناعتها في فترة قصيرة.. وقد اتفقت مع (وسن) أن تتحول إحدى غرف بيتي إلى معمل خاص لصنع الدُّمى.. لماذا بيتي تحديدًا؟!.. لأن أفراد عائلتي اعتادوا السفر معظم أوقات السنة.. فتكون الفيلا خالية تقريبا باستثناء إحدى الخادمات التي تُبقيها والدتي معي لو اخترت البقاء وعدم السفر معهم كما أفعلُ بين الحين والآخر.

سكتتْ (مرام) قليلا.. ثم أردفت مبتسمة:

- ربما ستشعر بعدم الراحة لو دخلتَ تلك الغرفة التي أصبحَت أقرب إلى المتحف.. ووجدتَ فيها عشرات الدمى التي تبدو حقيقية جدًّا وهي تحدّق بك بإصرار غريب، وكأن الحياة ستنبعث منها في أيَّة لحظة.. مما يدلُّ على إتقاننا في صنعها.. دعك من أنه لم تكن لدينا نيَّة لبيع تلك الدمى أو التصرف بها.. فكل منها يمثل إنجازًا شخصيًّا لنا.. المهم أننا في ذات يوم.. تحوَّل حديثنا تدريجيا -ومن دون أن نشعر- إلى هؤلاء المبدعين الذين يقدّمون عروضًا مسرحية مستخدمين الدمى.. فيتحدَّثون من بطونهم، مع تحريك الدمية بطريقة فنيَّة تُوحي وكأنها هي التي تتحدَّث(16).

بالطبع أعرف ما تتحدثان عنه.. فقد شاهدت عروضًا كثيرةً كهذه في (YouTube).. لذا تركتهما تكملان.. لتقول (مرام):

- وبسبب حديثنا هذا.. وبسبب وقت الفراغ الشاسع الذي نملكه.. طرأت في ذهني فكرة غريبة.. أن نعثر على شخص يؤدي لنا عرضًا مسرحيًّا كهذا في بيت العائلة.. خاصة مع علمي بسفر أفراد عائلتي إلى بيتنا الآخر في (هولندا) بعد شهور قليلة لقضاء إجازةِ الصيف هناك.. ذلك البيت الذي قضيتُ فيه إجازاتِ صيف عديدة حتى أصابني الملل منه ومن السفر عموما.. المهم أنني عرضت فكرتي

على (وسن).. فتحمَّسَت لها كثيرا.. لنبدأ رحلة البحث عن ذلك المؤدّي المُرتقَب في وسائل التواصل الاجتماعي على أن نعرض عليه مكافأة مجزية.. بالإضافة إلى تحمل كل مصاريف سفره وإقامته لو كان من بلد آخر.. شرط أن يكون موعد قدومه أثناء سفر أفراد العائلة.. كوننا سنجلب رجلًا غريبًا إلى الفيلا.. وهو ما لن يقبلَه والديَّ بطبيعة الحال.

رمقتني كل منهما بنظرات جانبية يشوبُها الإحراج لتصرُّفهما هذا الذي يحوي شيئا من الاستهتار.. لكن.. إنه طيش في النهاية.. طيش الشباب.. ويمارسه الجنسان.

حاولت العودة إلى القصة الرئيسية وأنا أقول:

- مؤكد أنكما عثرتما على المؤدّي المطلوب.. ومنه بدأت القصة.

يبدو أن طريقتي في رفع الحرج عنهما وإعادتهما للقصة الرئيسية نجحت.. إذ ردت (وسن) هذه المرَّة وهي تشير إليَّ بإصبعها:

- بالضبط.. إن عالَم الشبكة العنكبوتية مذهل يا دكتور كما تعلم.. فقد عثرت بعد عدة أسابيع من البحث على شاب من (الكويت) يؤدي تلك العروض باحترافيَّة مذهلة في حسابه الخاص على أحد مواقع التواصل الاجتماعي رغم قلَّة متابعيه.. علما بأنه لا يُظهر وجهَه الحقيقي أبدا.. إذ يؤدي كل عروضه أمام شاشة الكاميرا وهو يضع على وجهه

ماكياج يجعله أشبه بالمهرج الحزين.. كما أن عروضه -وإن كانت قليلة- عميقة جدا بعيدة عن التهريج.. فتواصلت معه من حسابي الخاص الذي يحمل اسمي الحقيقي وصورتي الشخصية.. مما جعله يستجيب مباشرة.. وطلبت منه أن يؤدي عرضًا لنا ولصديقاتنا ويحدد المبلغ الذي يريده.

ابتسمتُ في السر مستغربًا عما قد يفعله الإنسان إذا كان يملك المال ووقت الفراغ معًا.. هاتان الفتاتان لم يعد يذهلُهما شيءٌ كما يبدو.. لأنهما تملكان كل شيء تقريبا.. فراحتا تبحثان عن هواية جديدة.. أو لنقل مغامرة جديدة.. لحسن الحظ أن وقت فراغهما لم يقدهما إلى ما هو أسوأ من ذلك.. كتعاطي المواد المخدرة مثلا.

أشرت لهما أن تكملا.. لتقول (وسن):

- طلب الشاب مبلغًا كبيرًا نظير ذلك.. فوافقنا عن طيب خاطر.. واتفقنا على موعد مناسب.. حيث سيخلو البيت -بعد سفر الجميع- سوى من الخادمة التي تقيم في جناح الخدم في الطابق الأخير من الفيلا، وتذهب إلى الفراش مبكرًا بعد أن تقوم بكل واجباتها.. أي أن الفيلا بأكملها ستكون تحت تصرُّفنا.

سكتنا معًا وأنا أترقَّب ما قد يحدث.. لتقول (مرام) وهي تنظر إليَّ مباشرة:

- في اليوم الموعود.. زارتني (وسن).. وقد دعونا أيضا

اثنتين من صديقاتنا المقرَّبات.. لنجلس في صالة الفيلا الواسعة نتحدث في أمور عدة منتظرين قدوم ذلك الشاب الذي وصل في الموعد حسب الاتفاق.. فكانت المرة الأولى التي نراه فيها من دون مساحيق المهرجين.. وقد كان في منتصف العشرينيات من العمر تقريبا.. طويلُ القامة.. على قدر كبير من الوسامة.. وله نظرات عميقة تُوحي وكأنه عانى كثيرا في حياته.. وكان يرتدي بنطلونًا أسود وقميصًا أبيض تركَه مهملًا خارج البنطلون، وقد قام برفع أكمامه كما يفعل الكثير من الشباب.. مما منحه منظرًا مهيبًا أثار إعجابنا والحق يقال.. ولا أنسى الحقيبة الكبيرة التي وضعها على الطاولة في وسط الصالة.

تحفَّزتُ في مكاني متوقعًا أمرًا مخيفًا أثر على ثباتهما النفسي.. وجعلهما تحملان تلك النظرات التائهة وتقرران زيارةَ مستشفى الطب النفسي.. فالتزمتُ الصمت التامَّ وقد خلعتُ نظاراتي كما أفعل دوما حين يستحوذ شيءٌ ما على انتباهي.. لتستلم (وسن) دفة الحديث وتقول:

- بعد تبادل عبارات الترحيب والتحدث حول أمور عامة.. تنحنح الشاب -الذي عرفنا أن اسمه (عيسى)- ووقف بمنتصف الصالة.. ثم أخرج من حقيبته دمية قديمة مهيبة كبيرةَ الحجم بشكل واضح.. تمثل ولدًا في سن المراهقة.. وقد صُنِعت بدقة مذهلة والحقُّ يُقال.. وجعلتنا نشعر أننا هاويتان وأبعد ما نكون عن الاحتراف.. دعك من العبق

التاريخي الواضح الذي يحيط بها.. فبدت وكأنها من الأزمان القديمة حين كان الناس يمتلكون البال الرائق لصناعة تلك الأشياء بضمير.

سكتَتْ قليلا وهي تنظر إلى الفراغ.. ثم أكملت:

- وضع (عيسى) يده داخل الدمية بعد ذلك ليقوم بتحريكها كما يشاء.. وراح يتحدَّث من بطنه وبطريقة مذهلة تجعلك مقتنعًا تماما أن من يتحدَّث في واقع الأمر هو الدمية فعليًّا.. ثم قدم لنا مسرحيةً لطيفةً رقيقةَ الحس عن تلك الدمية وهي تحاول أن تعرف حقيقتَها.. لتكتشف في النهاية أنها من صنع البشر.. فتتأثرُ وتنهارُ حزنًا.. لكن (عيسى) يخبرُها أنه سيظل معها طوال العمر ولن يفترقا أبدا.. لتغمرَها السعادة في مشهد درامي مذهل.. كل هذا بكلمات وعبارات مسرحيَّة تجعلك تبتسم أحيانا وتضحك أحيانا أخرى.. وتدمع عيناك أيضا في بعض اللقطات.. إلى أن انتهى العرض الذي استغرق نصف الساعة.. لنصفق له بإعجاب شديد وسط نظراته الخجولة والفخورة بنفس الوقت.. وعندما انتهى.. أخذته (مرام) جانبًا ومنحته مظروفًا ممتلئًا بالمال هو المبلغ الذي طلبه منا.. ثم تبادلنا معه حديثًا طويلًا حول هوايته.. وألقينا نظرةً أكثر دقة على الدمية التي وجدناها ثقيلة نسبيًّا.. فراحت كل منَّا تضع يدها داخلها وهي تحاول التحدث من بطنها.. لكنَّ محاولاتِنا باءت بالفشل بطبيعة الحال وسط ضحكاتنا.

سألتُهما باهتمام محاولًا تجاوز كلمات الإعجاب هذه بخصوص الدمية وذلك المدعو (عيسى):

- ماذا حدث بعد ذلك؟!.

ردت (مرام):

- بسبب إعجابي الشديد بالدمية.. سألتُه صراحةً إن كان يرغب ببيعها.. إلا أنه رفض رفضًا قاطعًا مدعيًا أنه يمتلكُها منذ سنوات وقد دفع فيها مبلغًا كبيرًا.. وأنا يا دكتور لم أعتد الرفضَ في حياتي.. وهذا ما جعلني أطلب شراءَ الدمية بكبرياء وعناد وبأي مبلغ يريده.. و.. وسط إصراري ونظرات (وسن) وصديقتَينا اللّتين لم تتوقّعا مني تصرُّفًا كهذا.. وجدت الشاب يتخاذل تدريجيًا وهو يطلب مبلغًا مخيفًا.. ولو كان قد طلبه من شخص متوسّط الدخل.. لربما اتهمه الأخير بالاستغلال وقام بطرده مباشرة.. أما أنا فقد طلبت منه أن يرسل لي رابطًا بنكيًا بالمبلغ كي أقوم بتحويله له لحظتها مقابل الحصول على الدمية.. فتمّ كل شيء بسرعة غير معقولة.. وهو أمر طبيعي.. فأينما توفّر المال.. تزول معظم المشاكل والصعوبات.. لأحصل أخيرا على الدمية وأضعها بفخر في غرفة الدمى إياها.. وكأنني صنعتُها بنفسي.. إنه فقط حب التملُّك والشعور بالانتصار.

ساد الصمت بعض الوقت وكأن الفتاتين تسترجعان ذكرى

ما حدث.. لتقول (وسن):

- لا نعرف كيف ولا متى مر الوقت.. حين انتبهنا إلى أن الساعة تجاوزت منتصفَ الليل بقليل.. ليتنحنح (عيسى) بحرج ويستأذنَنا للخروج.. مما جعل صديقتَينا تنهضان من مكانِهما أيضا وقد انتبهتا بدورهما إلى تأخُّر الوقت.. أما أنا.. فقد كان من المقرر أن أقضي الليلة عند (مرام).. حيث أنام في غرفتها على النصف الآخر من سريرِها كما هي العادة.

لم يكن من العسير الاستنتاج أن أمرًا مرعبًا سيحدث في أيَّة لحظة.. فكنت متهيّئًا لسماع أي شيء مهما بدا غريبًا.. وأمام نظرات الاهتمام وحاجبيَّ المنعقدان.. أكملت (وسن):

- في ليال كتلك.. من الطبيعي أن يدور حديثٌ بيننا من القلب إلى القلب كون كل منّا تحت اللحاف والظلام يخيم على الغرفة.. فتحدَّثنا حول أمور كثيرة.. إلى أن ساد الهدوء تدريجيًّا مع شعورنا بالنعاس.. لتغرق كل منا في عالمها الخاص، ظنّا منّا أننا سنستيقظ على ضوء الشمس.. لكن.. بعد ساعة أو أكثر قليلا.. استيقظتُ فجأة على وقع توقُّف جهاز التكييف المركزي عن العمل.. فاختلست النظر إلى العداد الرقمي المضيء على جهاز التحكم في درجة برودة التكييف لأجده لا يعمل.. وهذا يعني أن الكهرباء انقطعت لسبب غير مفهوم.. لم أعر الأمر اهتماما ظنا أنه مجرَّد حادث عارض وأن الكهرباءَ ستعود

في لحظة ما قريبا.

تجهمت ملامحها وكأنها وصلت إلى اللحظات التي تتمنى نسيانها.. لتقول بصوت مرتجف:

- لكن.. بعدها بدقائقَ قليلة فحسب.. شعرتُ بأحدهم يدخل الغرفة بهدوء شديد.. ففتحتُ عينيَّ وأنا أنظر بتوجُّس تجاه الباب متسائلةً عن هوية الزائر.. لأرى طفلًا يقف على قدميه بثبات عند عتبة الباب ممسكًا بمطرقة!!.. ثم رأيتُه يسير تجاهنا بخطىً ثابتة.. المشكلة يا دكتور أن حجم الطفل كان أصغر بكثير من قدرتِه على المشي بهذه الطريقة.. طفلٌ في هذا العمر يفترض أن يتعثَّر قليلا في خطواته.. وكان هذا مخيفاً في حد ذاته.. ليتفاقم الخوف ويتحول إلى هلع حين تذكَّرتُ الدمية.. إنني أرى الدمية بالفعل!!.. الدمية التي اشتريناها من (عيسى) وتركناها في غرفة الدمى.. وكأن.. وكأن الحياة قد دبَّت فيها فجأة.. أعلم أنه قد يبدو لك مشهدًا مبتذلًا مكررًا من أحد أفلام الرعب.. لكن صدقني.. هذا ما رأيتُه.

نظرت إليها في شك واضح وأنا أقول:

- لقد عاصرتُ تجارب كثيرة.. لو سردتُها لكما لما صدقتما منها حرفًا.. لكن جميعَها كان لها خلفية علمية إن صحَّ التعبير.. أما ما تقولينه فهو المستحيل بعينه.. لا توجد دمى تصحو وتقتل الناس.

تجاهلت (وسن) كلامي بطريقة وَقِحة -وكأنني لم أقله أصلًا- لتكمل:

- ظلت الدمية تتقدَّم نحونا بخطوات هادئة واثقة.. مما جعلني ألتصقُ بـ(مرام) سريعًا وأحتضنُها بقوَّة وأنا أهمس رعبًا أن تستيقظ.. لأنني عجزت عن التحدُّث بصوت مرتفع.. فقد خانتني حبالي الصوتية لإطلاق أيَّة صرخة.. وبكل تأكيد تطلَّب من (مرام) بعض الوقت كي تستوعب ما يحدث وتسمع كلماتي المتسارعة.. ومن دون أن تنظر إلى ما يحدث.. تكوَّمت بدورها تحت اللحاف واحتضنتني ونحن نسمعُ صوت الخطوات على رخام الغرفة.. مع صوت همهمة غاضبة تخرجُ من الدمية وهي تقترب كثيرا من السرير وأسناننا تصطك رعبا.. إلى أن رأيناها تطل علينا بعد أن رفعَت عنا طرف اللحاف.. لكن.. شيئا ما جعلها تعيد اللحافَ فوقنا بسرعة.. لتتصرَّف بعدها بجنون غريب!!.. إذ راحت فجأة تضربُ بمطرقتها كل شيء حولنا.. مع نفس الزمجرة والهمهمات الغاضبة.. كنَّا نسمع أصوات أشياء تتكسَّر هنا وهناك.. ربما أثاث الغرفة والأجهزة الكهربائية.. وهذا الضجيج جعلنا نصرخ بجنون ونحن ما زلنا نحتضن بعضنا.. ثم.. خرجت الدمية من الغرفة.. وقفلت الباب خلفَها!!.. وكأنها تريدُ سجننا!!.

استلمت (مرام) دفة الحديث لتُكمل بذعر وكأنها ما زالت تعيش تلك اللحظات:

- عندما استوعبنا الصدمة وتأكَّدنا أننا وحدنا.. نهضتُ مسرعة تجاه الباب ووجدتُه مغلقًا من الخارج.. لأضيء النور.. وأجد على الأرض ورقةً كُتبَ عليها باللون الأحمر وبطريقة مبعثرة ألَّا نحاول الخروجَ من الغرفة.. وإلا سنموت!!.. كان واضحًا أن اللونَ الأحمر هو دمُ أحدهم.. لكن مَن بالضبط؟!.. لم نكن نعلم.. وأمام كل ما يحدث.. تذكَّرنا هواتفَنا النقَّالة.. فرحنا نبحثُ عنها في أرجاء الغرفة التي تحطَّمت فيها بعض قطع الأثاث والمرآة.. لنجدَ أن هواتفَنا كذلك تحطَّمت بالكامل.. أي أننا منعزلتان تماماً عن العالَم.. ولا توجد طريقة نستطيع خلالها طلب النجدة.. فلَم يكن هناك هاتف أرضي في غرفتي.. من يستخدم الهواتف الأرضية الآن؟!.

ظل الشك يراودني بقوة.. لأن قصة كهذه لا يمكن أن تكون حقيقية.. فقلت مرددًا بشيء من الحدة وللمرة الثانية:

- الدُّمى لا يمكن أن تدبَّ فيها الحياة.. هذا مستحيل بكل المقاييس.. هل أنتما واثقتان أنها كانت دميةً أصلًا؟!.

ردت (وسن) باهتمام:

- كلامك صحيح ومنطقي وعقلاني وعلمي يا دكتور.. لكن.. ربما لا يمكن قياس العالَم بهذه الأمور وحدها.. هناك أمور كثيرة غيبية تعمل خلف إدراكنا كالجن والسحر.. لا تنسَ أننا نجهل تاريخ تلك الدمية القديمة.. وأي سحر

أو لعنة قد تحملُه في جوفها!!.. وبخصوص سؤالك فأنا واثقة أنها دمية بالطبع.. هي نفسها الدمية التي جاء بها (عيسى).. وقد لمحتْها (مرام) كذلك حين طلّت علينا ونحن تحت اللحاف.

قلت بعناد:

- لا يوجد دليل علميٌّ أو عقائديٌّ على أن السحر أو الجن بإمكانهما فعل شيء كهذا.. أنا أراهن بحياتي على ذلك.. وأنا على يقين أن الكثير من الثوابت تمَّ تثبيتها في أدمغتنا بفعل الخوف.. لا الاقتناع!!.. عموما.. سأستمع إليكما حتى النهاية.. ماذا حدث بعد ذلك؟!.. ألم تطلبا النجدةَ من خلال النافذة مثلا؟!.

نظرتا إليَّ بِشك وكأنهما ليستا متأكدتين من كلامي بعد كل ما حدث لهما.. لتقول (وسن):

- في البداية لم نجرؤ على اتخاذ أيّة خطوة إيجابيَّة مع رسالة التهديد التي تركتها الدميةُ في الغرفة.. فحالة الرعب منعتنا تماما من التحرك.. وهذا ما جعلنا نقرر الانتظار لحين استيقاظ الخادمة ونزولها من غرفتها للقيام بعملية التنظيف اليومية.. ثم فكرنا أن الخادمة نفسها قد تكون في خطر.. أو محبوسة في غرفتها أيضا.. لذا.. مع بدء تسلل أشعة الشمس إلى الغرفة حيث كانت الساعة قد تجاوزت الخامسةَ فجرًا بقليل -ومع الهدوء الذي سيطر

على الفيلا- تجرأنا قليلا.. وفتحنا النافذة طلبًا للنجدة.. ولم يتطلب الأمر وقتًا طويلًا كي ينتبه لنا أحد عمال النظافة ويقوم مشكورا بالاتصال في الشرطة التي لم تتأخر كثيرا.. فسمعنا أفرادها يضربون الباب بقبضتهم بعد أن لاحظوا أن الجرس لا يعمل بسبب انقطاع الكهرباء.. في حين استجمعنا شجاعتنا أخيرا ورحنا نصرخ بهم من الشباك أن يقوموا بكسر الباب.. لكن كل هذه الضجة الخارجية أيقظت الخادمة بسبب شباك غرفتها الذي يطل على الشارع أيضا.. حيث اتضح أنها بخير لحسن الحظ ولم تعلم أبدا بما جرى كما هو متوقع.. فنزلت وفتحت لنا الباب حين سمعت صراخنا وعلى وجهها علامات الاستغراب والذعر.

سألتهما مستغربا:

- كيف فتحَت لكما الباب؟!.. هل كان المفتاح موجودا في القفل الخارجي للغرفة؟!.

أجابت (وسن) في حيرة:

- نعم.. كنا قد اختلسنا النظر قبلها من فتحة القفل ووجدنا المفتاح في الداخل بالفعل.

تجاوزنا جميعا هذه النقطة.. لتكمل (وسن):

- لم يجد أفراد الشرطة الوقت لكسر الباب.. فقد خرجنا إليهم متجاهلين صياح الخادمة التي تتبعنا وهي تصرخ بذعر وتطلب منا تفسيرا لما يحدث.. لنصطدم بوجود

شرطي وبرفقته سيدتان من الشرطة النسائية رمينا أنفسنا في أحضانهما ونحن نبكي ونصرخُ ونتحدَّث بكلمات سريعة نشرح فيها ما حدث.. إلا أن تصديق قصة كهذه مستحيل كما ترى.. خاصة حين أخذنا الشرطةَ إلى غرفة الدمى.. ووجدنا الدمية إياها تقبعُ على أحد الرفوف بكل هدوء وبراءة كما تركناها.. إنها مجرَّد دمية.. هذا ما يؤكده مَلمسُها.. وهذا ما يؤكده الواقع.. وهذا ما جعل الحديثَ مع الشرطة يتحوَّل إلى منحى آخر.. حين سألونا صراحةً إن كنا قد شربنا الكحول أو تعاطينا بعضَ الموادّ المخدّرة.. فأجبنا باستنكار أنْ لا.. لكنهم لم يقتنعوا بإجابتنا هذه.

سألتُ (مرام) بغموض:

- هل كان هناك أي شيء مفقوداً في الفيلا؟!.

أجابت بنظرات تحمل الإعجاب لسؤالي:

- لقد وجَّه إلينا أفراد الشرطة هذا السؤال.. فأجبنا بعدم علمنا وأن علي التدقيق على كل محتويات الفيلا الثمينة للتأكد إن كانت هناك أيَّة أشياء مفقودة.. ثم ذهبوا إلى لوحة تحكم الكهرباء ووجدوا أنَّ هناك من أغلقَ مفتاح التحكم الرئيسي.. كما قاموا باستجواب الخادمة.. فأنكرت علمها بكل شيء وأكدت أنها استيقظت على صوت صراخنا من الشباك وصوت ضرباتهم على الباب.. كون غرفتها تعتمد على دائرة كهربائية مختلفة ووَحدةِ تكييف خاصة بها..

أي لم تشعر حتى بانقطاع التيار الكهربائي.. فرحل أفراد الشرطة وهم يخبروننا أنهم لن يقوموا بتسجيل قضية كهذه إلا لو كانت هناك مسروقات، شرط أن نغير أقوالنا أيضا وندعي أن لصًّا اقتحم المكان!!.. وهو ما يخالف الواقع الذي رأيناه بأنفسنا.. فغادروا وهم يؤكّدون أنه لا توجد قضية أصلًا.. مع تلميحات بأن الأمر سيتطور في المرة القادمة!!.. وهو تهديد مبطن ورسالة واضحة أننا سنواجه تهمةَ إزعاج السلطات التي نسمع ونقرأ عنها دوما كونهم كانوا على يقين بأننا نكذب أو كنا تحت تأثير المسكرات.. وقد أخذوا معهم الدمية كي يتخلّصوا منها بناءً على طلبنا.. لأنها بدت لنا كالشيطان نفسه.. ولم نجرؤ على لمسها.

سألتُهما بشرود:

- ماذا عن اللوحة التي احتوت على التحذير؟!.

قالت (وسن) بامتعاض:

- لم يأخذْها أفراد الشرطة لفحصِها والتأكد إن كانت الكلماتُ قد كُتبت بالدم فعليًّا إلا إذا وافقنا على تغيير أقوالنا.. فكلامنا عن دمية دبّت فيها الحياة قضى تماما على مصداقيّتنا بالنسبة لهم.. خاصة حين علموا بخلو الفيلا من جميع أفراد العائلة.. مما أكد لهم انطباعهم أننا قضينا وقتنا باللهو وتناول المسكرات.. والواقع أننا لم نجد

أيَّة فائدة من التحدي والذهاب معهم لفحص دمائنا وإثبات خلوها من أي مواد مسكِرة.. فهذا لن يعني أنهم سيصدقون قصة مستحيلة الحدوث كهذه.

سكتت الفتاتان أخيرا وبدا وكأن لا يوجد لديهما ما تقولانه.. لأسألهما:

- وكيف كانت ردودُ أفعال عائلتيكما؟!.

قالت (مرام) بحزن:

- عند عودة أفراد عائلتي.. أخبرتهم بما حدث.. وبالطبع غضب والديَّ كثيرا من استقبالنا لشاب غريب في الفيلا.. ووجها لي لومًا شديد اللهجة.. ولم يصدّقا قصَّتنا كما هو متوقَّع.. خاصة حين اكتشف والدي أن الخزنةَ التي يحتفظ فيها بمبالغ نقدية ومجوهرات والدتي قد تمَّت سرقتُها بالكامل!!.. لقد كان من المستحيل أن أكتشف ذلك لأن من سرق الخزنة أعادَ إغلاقَها.. وهو أمر غير مألوف.. فقد اعتدنا أن نرى اللصوص يفرغون الخزائن ثم يهربون ويتركونها مفتوحة بإهمال.

سألتهما متهكما:

- ألا تجدان أنه من الغريب أن تقوم دمية بسرقة المال والمجوهرات؟!.. ثم لماذا يحتفظ والدك بالمال في الفيلا يا (مرام)؟!.

ردت بكبرياء:

- هكذا هي حياة الأثرياء حين تأتيهم الأموال من كل جانب.. وإلا عليهم زيارة البنوك بصورة يومية.. عموما فإن المبلغ المفقود يساوي عشرات الآلاف من الدنانير.. مبلغ قد يغير حياة إنسان فقير أو متوسط الدخل .. لكنه لن يعني شيئا بالنسبة لعائلة كعائلتي.. المشكلة أن أحدًا لم يصدقنا مع الأسف.. وظن الجميع أن هذا عبث فتيات وأنني سرقت المال والمجوهرات لنفسي.. وأن الأثاث المحطَّم سببه -ربما- شجار حصل بيني وبين (وسن) .. فظل والدي يحمل نظرات العتاب تلك كلما يراني.. كونه لا يبخل عليَّ أبدا، ولم يكن هناك أي داع للسرقة واختلاق قصة كهذه.. وكان هذا يزيد حالتي النفسيَّة سوءًا.. وكذلك والدتي التي حاولَت أكثر من مرة إقناعي بأن أقول الحقيقة.. رغم أنني قلتها لهم أكثر من مرة.. والمؤلم أنهم -ولأول مرة- أبدوا امتعاضَهم من (وسن) على أن لها يدًا فيما حدث بصورة أو بأخرى.. وأبلغوا عائلتَها بذلك.. حيث واجهت بدورها عتابًا شديدًا من والديها وضغوطًا كثيرة كي تقول الحقيقة.. بدلًا من تلك القصة السخيفة كما يرونها.. أما بخصوص كلامك المتعلق بسرقة الدمية للمال والمجوهرات.. فلا أعلم إن كانت هي من تقف خلف ذلك.. لاحظ أننا لسنا متأكدين أصلًا من أن الخزنة سُرقت في تلك الليلة تحديدًا كونها كانت مغلقةً طوال فترة سفر أفراد عائلتي.

عم السكوت أنحاء الغرفة بعد ذلك وغرق كل منا في أفكاره.. ثم سألتهما صراحةً وبكل هدوء وقد فهمت ما تريدانه:

- أنتما تطلبان مني العثورَ على تفسير لما حدثَ.. أليس كذلك؟!.. ربَّما نسيتما أنكما في مستشفى الطب النفسي.. ولستما في مخفر شرطة.. أعترفُ أنَّ لي بعض الاطلاع على علم نفس الخوارق الـ(باراسيكولوجي).. لكن السحر والجن والأشياء التي تجعل الدُّمى تتحرك وتهدد حياة الآخرين.. كلها خارج هذا النطاق ولا أستطيع تصديقها كي أبحث عن أي تفسير لها.. إن قصتكما تناقض قوانين العلم والفيزياء.. وقبل أن تتحدث أحدُكما ثانية عن الجن.. تذكَّرا أنه لم يثبت العلم حتى الآن حالة واحدة لشخص مصاب بمس من الجن(17).. نعم نحن نؤمن بهذا عقائديًّا.. لكن من غير المعقول أن نربطه بكل قصة لا نفهم تفاصيلها.. هناك تفسير منطقي ولا شك.. لكنني أجهلُه.

نظرت كل منهما إلى الأخرى.. لتنقل (مرام) نظراتها إلي.. وتقول برجاء وقد بدت المتورطة الأكبر كون الأحداث جرت في بيتها:

- أخبرنا إذًا لمَن نلجأ؟!.. الشرطة لم تصدقنا.. وأقاربنا لم يصدقونا.. وقد تواصلت (وسن) مع أكثر من شيخ دين علَّ أحدَهم يمتلك تفسيرًا لما حدث.. لكن أكثرَهم أنهى

التواصل معها ظنًّا أنها تسخر منهم.. وأنا أتفق معك أن القصة عسيرةُ التصديق.. فلم نسمع أبدا أن الجنَّ فعل شيئا كهذا!!.. لهذا أنا أتوسل إليك يا دكتور.. أرجوك أن تفكر معنا بتفسير لما حدث.. لم أعد أحتمل الرعب الذي أعيشه في بيتنا يوميًّا حين أستذكر تفاصيل تلك الليلة.. كما أن شخصياتنا تغيرت كثيرا مؤخرًا.. فقد بتنا نكره صناعة الدمى.. ولم نعد نطيق دخول الغرفة التي كنَّا نراها متحفا لإنجازاتنا.. ربما أُصبنا معا بفوبيا الدمى إن كان هناك شيء كهذا(18).. ولحسن الحظ فإن أشقائي لا يعلمون بما حدث.. فجميعهم متزوجون ولا يعيشون معنا.. وإلا كيف سيكون موقفي أمامَهم وهم يرونني كاذبةً سارقةً مستهترةً.. تكفي نظرات واتهامات والديَّ التي تقتلُني يوميًّا.

هزت (وسن) رأسها مؤيدة وكأنها باتت تُعاني الأمرَ ذاته.. لكني تجاهلتُ هذا الكلام وسألتُهما بعد أن تذكرت شيئا هامًّا:

- ماذا عن المدعو (عيسى)؟!.. ألم تتواصلا معه بعد تلك الحادثة؟!.

ردت (وسن):

- لقد اتصلت به وسألته عن أمر الدمية.. فكان كلامُه شبيهًا بما قاله الجميع.. مؤكدا استحالة تحرّك الدمية من

تلقاء نفسها.. وحتى لو حدث المستحيل وتحرَّكت.. لحدث هذا أولا في بيته فترة امتلاكه لها طوال السنوات الماضية.

رحت أنظر إليهما للحظات وإلى نظرات الرجاء التي ترمقانِني بها.. حتى تبخرت كل ذرة شك لدي في أنهما -ربما- تعاطتا موادَّ مسكرة أو مخدرة كما ظنَّ رجال الشرطة.. كما لا أنكر أن الفضول بدأ يسيطر علي بسبب اقتناعهما التام بما حدث.. وأنا بطبيعتي أعشق التحدي.. وأكره كثيرا وجود قصة كهذه تتحدَّى قوانين العلم ولا أجد لها أي تفسير.

في النهاية.. وجدت أنه لن يضرني شيءٌ لو منحت نفسي بعض الوقت للتفكير في تلك الأحداث علني أكتشف حقيقةً غابت عن الجميع بدلًا من قصة مبتذلة كهذه.. فطلبت من الفتاتين أن تتركا أرقام هواتفهما معي.. على أن أتواصل معهما لاحقا لو استجد أي جديد.

في الأيام التالية.. استمرت عجلة حياتي بالدوران بذات النمطِ والبطء والرُّوتين المعتاد الهادئ الذي أحبه كثيرا.. مما جعلني أُولِي هذه القصةَ اهتمامي في أوقات فراغي.. فكل تجربة جديدة هي بمثابة خبرة جديدة أيضا.. ومن المؤكد أنها ستضيف شيئا لرصيدي المعرفي.

وهكذا بدأت أضع الاحتمالات وأفسر الأحداث بطريقة عقلانية علمية.. مستذكرًا المقولة الشهيرة: ((عندما

تستبعد المستحيل.. فإن المتبقّي يكون الحقيقة مهما بلغت غرابتُها)) (19).

نظريات كثيرة وضعتُها وألغيتُها بنفسي بسبب ثغرات عديدة تنفيها.. ونقاط كثيرة توقفْت عندها عاجزا عن تحليلها.. ثم.. بدأتْ نظرية غريبة تتشكل في ذهني تدريجيا حين فكرت بأحد الاحتمالات الجنونية التي قد لا تخطر على البال للوهلة الأولى!!.. ففي كل سؤال كنت أطرحه على نفسي.. أجد إجابته تتجه إلى صحة هذا الاحتمال الجنوني.. ومن ثم صحة نظريتي هذه.. إلى أن اكتملت الصورة في ذهني، بعد أسابيع من التفكير المستمر تواصلتُ خلالها مع الفتاتَين من أجل طرح الأسئلة التي كانت تُراودني بين الحين والآخر.. مؤكدا أنني ما زلت أدرس وأحلّل قصّتهما جيدا.. وأنا لا أدَّعي الذكاء هنا.. وإنما أعشق التحدي كما ذكرْت.. وأردت بالفعل أن أفكَّ أسرار هذه القصة الغريبة.

في النهاية وبعد أن وضعتُ تصوُّرًا كاملًا لما يمكن أن يكون قد حدث.. اتفقتُ مع الفتاتين أن نلتقي صباح أحد الأيام في مقهى (ستاربكس) التابع لمنطقة (النزهة).. فأنا لا أضمن لهما عدم تواجدِ أي زائر أو مريض يقطع علينا حديثنا لو طلبت منهما لقائي في المستشفى.. دعكم من أن القصة بأكملها بعيدةٌ أصلًا عن تخصُّصي ومهنتي.

في صباح اليوم المحدد.. كنت جالسًا مسترخيًا في

المقهى.. أشرب قهوتي المفضلة (لاتيه).. وأبحث عن آخر الأخبار في وسائل التواصل الاجتماعي انتظارا للفتاتين.. لألمحهما قادمتين من بعيد وفي الموعد تقريبا.. حيث رحَّبتُ بهما وطلبت منهما الجلوس على أن آتِ أيضا بالقهوة المفضلة لكل منهما.. هكذا يجب أن تُعامَل الأنثى بوجهة نظري.. كالأميرة.. باحترام وتقدير شديدَين.. وسأظل أعامل كل أنثى بهذه الطريقة.. حتى لو حُرِمت من الارتباط بواحدة.

قلت للفتاتين بعد لحظات من تبادل عبارات المجاملة.. وبعد أن قدمت لكل منهما قهوتها المفضلة:

- أعرف أنكما تتوقعان مني الكثير.. وكما قلت لكما في المستشفى.. أنا لستُ بساحر.. وإنما أحاول إعمالَ عقلي في حل المشاكل.. هذا ما جعلني أخرجُ بنظرية غريبة أجدُها الأقرب إلى الواقع.. فكل الخيوط تتجه إليها.

كانتا تنظران إليَّ بلهفة شديدة وهما تنتظران مني الدخولَ في الموضوع.. لأسأل (وسن) مباشرة:

- هل تربطك علاقة بـ(عيسى)؟!.

سألتني (مرام) في حيرة:

- من (عيسى) هذا؟!.

قلت مبتسمًا:

- ومَن غيره؟!.. الشاب الذي أدى ذلك العرض في بيتك مستخدمًا الدمية إياها.

وضعت (مرام) يدها على رأسها وكأنها غير مصدقة أنها نسيت اسمَه.. أما (وسن).. فيبدو أنها حسمت أمرَها وقرَّرت إخباري بالحقيقة بعد أن ترددَت قليلا.. إذ أشارت برأسها إيجابا وسط استغراب صديقتِها التي سكتَتْ للحظة بذهول.. ثم وجهَتْ لها لومًا مباشرًا كونها لم تتحدَّث عن هذا الأمر من قبل رغم قوة وعمق صداقتهما.

عندها قلت باهتمام:

- لقد فكرتُ في القصة طويلًا.. ووجدت أن كل أحداثها تبدأ من خلال (وسن).. فهي التي تعرفت بـ(عيسى).. وهي التي جاءت به إلى بيتك يا (مرام).. وحتى تكتمل أركان نظريتي.. سأعود إلى السؤال الذي طرحته على (وسن) للتو.. أعتقد أنكِ على علاقة بـ(عيسى).. علاقة عاطفية ربما.. أليس كذلك؟!.

احمرَّ وجه (وسن) وهي تقول لصديقتها بخجل شديد:

- أعتذر لأنني لم أبلغكِ بذلك.. فأنا أحمل الإعجاب الشديد لـ(عيسى).. وأعترف أنني أحببتُه بعد أسابيع من التواصل حين كنتُ أقوم بالتنسيق معه على تقديم ذلك العرض.. لقد أحببتُ ذكاءه ولباقته ووسامته بعد أن أرسل لي صورتَه الشخصية لأول مرة.. كما قابلتُه مرَّتين قبل أن

نراه معًا في بيتك في ذلك اليوم المشؤوم.

قلت مبتسمًا بارتياح وقد عرفتُ أنني محقٌّ في استنتاجي:

- فقط لأنكِ أحببته يا (وسن).. ليس لِزامًا عليه أن يحبَّك بالمقابل!!.. هذا التفسير الوحيد المنطقي لما سأقوله وما تجهلانه معًا.. أعتقد أن (عيسى) هذا خدعكما معًا.. هل تتذكَّران الحقيبة التي جاء بها وأخرج منها الدمية؟!.. هل ألقيتما نظرةً على محتواها؟!.

هزَّت كلا الفتاتين رأسهما نفيًا باستغراب.. فسألتهما مباشرة:

- لكن ربما لاحظتما من طريقة حمل (عيسى) للحقيبة أنها ثقيلة.. أليس كذلك؟!.

سرحت كل منهما في عالمها الخاص، وبدا وكأنهما تحاولان استرجاع ذكريات تلك الليلة.. لتقول (مرام):

- أتذكر أنه كان يحملها بشيء من الصعوبة بالفعل.. وكأنها تحوي ثقلاً ما.

قلت ببساطة:

- نعم.. كان يحمل في حقيبته -بالإضافة إلى الدمية- القزمَ الذي يوازي طولَ الدمية تقريبا.. والذي ارتدى ثيابَها ووضع بعض المساحيق التنكرية ليجعلكما تظنان أن الدمية قد دبَّت فيها الحياة!!.. هذا هو التفسير المنطقيُّ الوحيد..

ألم تقولا أنَّ الدمية كانت كبيرةَ الحجم؟!.

كان هذا صادمًا بحق.. وأكبر بكثير من أن يتوقّعه أحد.. فرأيتهما تشهقان وقد اتسعت عيناهما دهشة.. لتقول (وسن) بأنفاس متسارعة:

- هذا مستحيل.. كم سيبلغ طول هذا القزم المزعوم كي يكون قادرًا على الاختباء في حقيبة؟!.

أغمضت عينيَّ وأنا أقول مستذكرًا:

- أقصر قزم سمعتُ به لم يكن طوله يتجاوز 54 سنتيمترًا تقريبا(20).. وحتى لو كان أطول قليلا.. فبإمكانه الاختباءُ والانكماش في حقيبة متوسطة الحجم كالتي جاء بها (عيسى) على حد وصفِكما.. خاصة لو كان نحيلًا لا يختلف جسده عن تلك الدمية.

بدا عليهما عدم الاقتناع.. لأكمل محاولًا توضيح وجهة نظري:

- كل الدلائل تؤكد كلامي.. فلو استبعدنا أنكما تكذبان.. وأن (وسن) لا تملك الدافعَ للسرقة كونها من عائلة ثرية أيضا.. ولو استبعدنا أيضا أن الدميةَ تحرَّكت كما بدا لكما -وهذا المستحيل بعينه- سنجد التفسير الوحيد المنطقي أن كل ما حدث عبارة عن عمليَّة سرقة تم تنفيذُها بذكاء شديد واحترافيَّة كبيرة.. والمسروقات هي الدليل على

صدق كلامي.. لا تنسيا أن ذلك القزمَ كان يملك كل الوقتِ لقتلكما بالمطرقة حين مثَّل دور الدمية التي تحركت.. لكنه لم يفعل.. وإنما استخدمَها لإتلافِ هواتفِكما لمنعكُما من طلب النجدة.. مع تحطيم أثاث الغرفة محدِثًا ضجةً لإخافتكما.. فهو ليس بقاتل.. بل سارق ومحتال.. مع شريكه (عيسى).

سألتني (مرام) بذهول:

- لكن.. كيف علما بوجود خزنة حديدية في بيتنا؟!.. وكيف تمكن ذلك القزم -على حد قولك- من البقاء في الفيلا بعد خروج (عيسى)؟!.

قلت بحسم:

- لا شكَّ أن هناك دقائقَ قليلة ابتعدَ فيها (عيسى) عنكما.. ربما ذهب إلى الحمام مثلا.. فخرج القزم من حقيبته.. وظل مختبئًا في مكان ما في الفيلا إلى أن استفردَ بكما بعد رحيل الجميع.. أما بخصوص الشق الأول من السؤال.. فأعتقد أن إحداكما -وعلى الأرجح (وسن) بسبب العلاقة التي تربطُها بـ(عيسى)- قامت بتصوير الفيلا من الداخل.. وأرسلت الصورَ لـ(عيسى).. لا أعرفُ تحت أيَّة ذريعة فعلت ذلك.. المهم أنه درس الصورَ جيدا ولاحظ وجود الخزنة التي أثارت اهتمامَه.. مفترِضًا أنها تحوي أشياء ثمينة كونها تخصُّ عائلةً ثرية.. ثم خطط للسرقة.

نظرت إليَّ (وسن) بذهول وهي تغمغم بكلمات خجولة:

- يا إلهي.. إنَّك حقًّا ذكيٌّ يا دكتور!!.. لقد كنت أتحدث مع (عيسى) باتصال هاتفي بالفعل.. عندما طلب مني أن يُلقي نظرةً على الفيلا.. لأنه أراد أن يرى كيف هي بيوت الأثرياء على حد قوله.. فنفذت طلبه بكل غباء وسذاجة.. إذ قمت بتصوير بعض غرف الفيلا.. منها غرفة المكتب لكي يرى فخامتها.. وهي الغرفة التي تحوي الخزنة كما ذكرنا لك سابقا.. وأرسلت له الصور واللقطات.. فعلتُ هذا في أحد الأيام التي استيقظتُ فيها قبل (مرام) حين قضيت الليلة عندها كما أفعل أحيانا كثيرة.

شعرت بالفخر لصحة استنتاجي.. فأكملتُ بثقة:

- لهذا أراد سجنكما في الغرفة وعزلكُما عن العالم.. فحطم هواتفَكما.. وقطعَ الكهرباءَ عن الفيلا خوفا من أن تكون هناك كاميرات مراقبة كما هو الحال في بعض فلل الأثرياء.. مستغلًّا العامل النفسي والرعب الذي أصابكما.. فقط ليتسنَّى للقزم سرقة الخزنة.. وربما فتح الباب لـ(عيسى) كي يدخل ويساعده في ذلك.. أو حتى استعانا بلص خبير في فتح الخزائن الحديدية.. لا أعلم.. لاحِظَا أنهما امتلكا وقتًا طويلًا.. حوالي 3 ساعات قبل أن تستنجدا بأحد المارة.. لقد راهن (عيسى) وشريكه القزم على خوفكما الشديد وبقائكما في الغرفة.. خاصة مع الورقة التي كتبا عليها ذلك التهديد وأثارَت رعبكما أكثر

وأكثر.. ولا أستبعد بقاء أحدهما عند باب غرفتكما للتنصت عليكما والتأكد من عدم قيامكما بأيَّة محاولات خرقاء لطلب المساعدة.. لكي يتسنَّى لهما الهرب إذا ما شعرا أنهما في خطر.

ظلت الفتاتان تنظران إليَّ بدهشة بالغة.. لتسألني (مرام):

- ولكن يا دكتور.. هناك ثغرة في كلامك.. فأنا التي طلبت شراء الدمية من (عيسى).. كيف علم أنني سأفعل ذلك؟!.. فبدون وجود الدمية عندي في الفيلا.. لم نكن لنصاب بكل هذا الرعب!!.

قلت وأنا أشير إليها بإصبعي:

- الإجابة الوحيدةُ الممكنة أن (وسن) اتفقت مع (عيسى) على شراء الدمية منه بعد انتهاء العرض.. لكنك يا (مرام) سبقتِها إلى ذلك.

ردت (وسن) مبهورة:

- يا إلهي.. هذا صحيح.. إنَّك تقرؤني وكأنني كتابٌ مفتوح!!.. لقد كنت أنوي ذلك بالفعل.. لولا أن (مرام) عرضت شراء الدمية بنفسها.. كنت أرغب بتقديم مساعدة مادية بصورة غير مباشرة لـ(عيسى).. فقط لكي لا أجرح كرامته.. خاصة حين أخبرني خلال إحدى مكالماتنا الهاتفية عن صعوبات مادية كثيرة يواجهها في حياته.. ورفض

تماما مساعدتي المباشِرة آنذاك.. فقد كان يخطط لعملية أكبر وأراد كسب ثقتي -في نفس الوقت- كما هو واضح.. لكن.. لماذا سرقَنا (عيسى) بهذه الطريقة الغريبة المعقدة أصلا ؟!.

قلت متجاهلا هذا الإطراء:

- لأنه يعلم أن أحدًا لن يصدق قصتكما مهما أقسمتما.. وهذا ما حدث.. فقد كنتما مُصرَّتين على أقوالكما التي رفضتها الشرطة.. ورفضها حتى أهاليكم.. لقد كانت الجريمة قريبة جدا من أن تكون الجريمةَ الكاملة التي نسمع عنها.. لولا محاولتي تجريد القصة من أيَّة أحداث تناقض العلم.. وقد نجحت في ذلك كما يبدو.. من الغريب أن يتوصَّل البشر أحيانا إلى خطط شديدة العبقرية لتنفيذ جرائمهم.. حتى لأتساءل عن سبب عدم استخدامهم لهذا الذكاء في الخير والكسب بطرق مشروعة.. إنها أغرب جريمة أسمع بها منذ جريمة خطف تلك الطائرة عام 1971 على ما أذكر(21).

إنها من اللحظات التي أشعر فيها برغبة قوية في استعراض معلوماتي كما نحبُّ أن نفعل جميعا بين الحين والآخر.. وقد تمنَّيت أن تسألني إحدى الفتاتَين عمَّا أعنيه.. لكن للأسف.. لم تكترثا للأمر.. بل صمتَتَا بعض الوقت.. قبل أن تغمغم (وسن) بذهول يشوبه الألم:

- لم أظن للحظة أن (عيسى) سيستغلُّ إعجابي به وحبي له ليخدعنا ويتلاعب بنا بهذه الطريقة.. كان يمثّل دورَ العاشق ببراعة.. وصدقتُه بكل غباء.. لا أعرف كيف كنتُ عمياءَ بهذه الطريقة.

قلت مصححًا:

- أدمغتنا تتلاعب بنا أحيانا يا (وسن).. خاصة حين تتكوَّن لدينا مشاعر سلبية أو إيجابية.. إذ يقوم الدماغ بشكل لا شعوري بعملية تركيز على كل شيء حول تلك المشاعر.. فعندما نحب شخصًا مثلا.. تقوم عقولُنا بالتركيز على كل الصور والأفكار والسلوكيات الإيجابية المتعلقة به.. فلا نرى منه إلا كل ما هو جميل.. على عكس الكراهية التي يركز خلالها العقل على أفعال وأقوال الشخص السلبية.. أي أن القرارات التي نتخذها -في الحالتين- تكون غير صحيحة أحيانا كثيرة.. وهذا ما يجعلنا نتذكر ألَّا نستسلم لمشاعرنا في الحكم على الناس.. وإنما النظر إليهم بحيادية وعقلانية.

صمتَنا بعض الوقت.. لتغمغم (وسن) بألم:

- أنا الحمقاء التي أخبرتُه أنني و(مرام) من عائلة ثرية جدا، وأفصحت له عن كل خصوصيَّاتنا.. ذلك الحقير.. فحتى حين تحدثت إليه عما فعلته الدمية.. مثَّل دور المصدوم ببراعة.. وأصرَّ على أنني تعاطيت موادَّ مسكرة

رغم إصراري وقسَمي.. إلى أن تخاذلَ في النهاية وأخبرني أنه سمع عن الدمية بعضَ الأقاويل لكنَّه لم يصدّقها.. وأنَّ شيئا غامضًا في بيت (مرام) -ربما- جعلها تتحرك.. كان يقول كلامَه هذا وهو يضحك ويسخر في قرارة نفسه من غبائِنا.. لكن.. مهلا.. مهلا.. ما الضمان أن كلامك صحيح يا دكتور؟!.. فهي مجرد نظريَّة كما تقول.

أجبت مباشرة:

- نعم هي مجرَّد نظرية.. لكنَّي لا أجد سببًا آخرَ لما حدثَ غير السرقة.. ولو أبلغتما الشرطة وقمتما باتهام (عيسى) صراحةً.. فقد يقومون باستجوابه ومن ثمَّ اكتشاف الحقيقة كاملةً.. هذا الخيار الوحيد المتاح لمعرفة مدى صحة استنتاجي الذي أراه منطقيًّا للغاية.. إذ يبدو أن (عيسى) -إن كان هذا اسمه- نصابٌ محترفٌ.. بالإضافة إلى احترافه في التحدُّث من البطن.

قالت (وسن) بحزن:

- لقد لاحظتُ ابتعاد (عيسى) تدريجيًّا في الأيام الماضية.. كان يتعلَّل بانشغالاته.. وكنتُ أصدّقه بسبب حبّي له.. لكن.. من الواضح أنها مجرَّد غيابات صغيرة.. تمهيدًا للغياب النهائي!!.

قلت بتهكُّم:

- للأسف فإن الحيوانات في هذا العالَم أكثر من

الحيوانات!!.. هناك عدد ليس بالقليل من الشبان الذين يرون كل فتاة على أنها فرصةٌ جديدة.. إما لمصلحة مادية أو جسدية.. فتجدين الواحد منهم لا يعامل أي فتاة كأخته.. سوى أختِه فقط!!.. وبعد أن تقع المسكينة في حبّه.. يبدأ رحلة البحث عن غيرها.. عموما.. لا تجعلي ذلك يشعرك باليأس.. فكم من فتاة رحل عنها حبيبُها وتركها محطَّمةً.. لكنها أعادت تشكيل نفسها بعد رحيله.. فوجدت أن حياتها أصبحت أفضل.. لأن الكثير من المصائب إيجابية على المدى البعيد.. ثم أن -والمعذرة على صراحتي- حياتك فارغة ويجب أن يكون هناك معنى لها.. فأوقاتُ الفراغ تدمّر حياة الإنسان.. خاصة لو صاحَبها وَفرة مالية.. يجب أن تقومي باستغلال أوقات فراغك بما هو مفيد.. وأن تطوّري من قدراتِك باستمرار.. فحتى الفيروسات تتطوّر.. لا تجعليها أفضلَ منك.. وهذا الكلامُ موجَّه إلى (مرام) أيضا.

وضعت (مرام) يدها على كتف (وسن) مواسية.. ثم سألتني بغضب:

- بعيدا عن خدعة ذلك اللّعين وضحكِه على عقولنا.. أخبرني.. لماذا الفتاةُ تحبُّ دوما أكثرَ من الشاب؟!.

قلت بخُفوت:

- ليس دوما.. فالطرف الذي عانى أكثرَ في حياته ووجد

في هذا الحب مخرجًا.. هو الذي سيكون حبُّه وعطاؤه أكبر.

قلتها وصمتنا جميعا بعدها.. في حين رأيتُ نظرات الإعجاب الواضحة في عيني (مرام).. لكنّي تجاهلتُها ونظرت إلى الفراغ.. فلا فائدةَ يا عزيزتي.. أنا أكبُركِ بسنوات طويلة.. ثم إنَّ الفارقَ شاسعٌ بيننا من الناحية الفكرية كما يبدو.. وهذا ما جعلني أنهض معتذرا للفتاتين متعللًا بانشغالي بأمور أخرى.. مذكّرًا بضرورة إبلاغ الشرطة بنظريَّتي.. فقد تكون صحيحة.. وأنا أرجح ذلك.

بعد أيام قليلة.. وصلتني رسالةٌ نصية من (مرام) تخبرني فيها أنها و(وسن) أبلغتا الشرطةَ بالأمر.. وقد قاموا باستدعاء (عيسى) لاستجوابِه.. لكنَّه استشعر أن شيئا ليس على ما يرام.. فأغلق هاتفَه واختبأ في جهة غير معلومة.. وما زالت الشرطة تبحثُ عنه حتى هذه اللحظة.. مما قد يرجح صِدقَ استنتاجي.. ثم ختمَتْ رسالتَها بتوجيه عبارات الشكر لي، وأنها مع (وسن) ستكونان أكثرَ حذرًا وحكمةً من الآن فصاعدًا.

وبعد بضعة أسابيع.. تلقَّيت رسالةً نصية أخرى من (مرام) تخبرني فيها أن الشرطةَ توصَّلت إلى (عيسى) فعليًّا.. وقد اعترف بعد تحقيقات عديدة أنه قام بأكثر من عمليَّة نصب.. إحداها ما فعله في قصتنا هذه وبطريقة قريبة جدا من استنتاجي.. مما أشعرَني براحة بالغة.. خاصة مع كلمات الإطراء التي أمطرَتْني بها (مرام).. والتي تلقيتها

منها بخجل.. إلا أنَّني لم أتواصل معها بعد ذلك.. رغم مراسلاتِها اليومية بكلمات الترحيب والأمنيَّات الطيبة كما نفعل جميعا مع المقرَّبين منَّا.. لتتوقف مع مرور الوقت حين شعرَتْ أنني لا أحمل لها شيئا في قلبي.. أما أنا.. فقد انغمستُ في عملي كما هي العادة.. وفي الحالات الكثيرة التي أرويها لكم بين الحين والآخر.. الحالات النادرة.

سر الشاب الذي أحببته!!

تحكيها: (نتال)

يوم (الخميس).. لا يختلف كثيرا عن الأيام الأخرى بالنسبة لطبيب اعتاد على أوقات العمل بنظام النوبات.. حتى في الأعياد والعطل الرسمية.. ربما عليك أن تكون طبيبًا أو موظَّفًا تعمل بهذه الطريقة لكي تفهم ما أشعر به.. الفارق في مستشفى الطب النفسي أن مناوباتي المسائية التي تصادف أيام (الخميس) أو (الجمعة) تكون أكثر هدوءًا من الليالي الأخرى الهادئة أصلًا.. فتخيَّلوا حجم الاسترخاء الذي كنت عليه في مكتبي بعد أن قمتُ بالأعمال الروتينية المطلوبة.. كمتابعة المرضى من نزلاء المستشفى وإنهاء بعض الأمور الإدارية.

يحاول زملائي الأطباء قتل هذا الوقت بالجلوس مع الإداريين المناوبين.. لكني لا أفعل ذلك.. بل أحافظ على الحواجز التي وضعتُها للجميع من حولي.. مما سبب نوعًا من الارتباك لهم.. فأنا قليل الكلام وقليل الابتسام.. ولا أتحدَّث عن نفسي كثيرا رغم بعض الأسئلة الفضوليَّة التي تُطرح عليَّ حول شخصي المتواضع.. إلا أنني أجيبهم بتحفظ وأعاملُهم باحترام ووِد ينفيان عني صفة الغرور.

كنت أجلس في مكتبي ممسِكًا بهاتفي وأبحث في مواقع التواصل الاجتماعي لقتل الوقت.. قبل أن أرى اسم شقيقي

الأكبر على شاشة الهاتف متزامنًا مع رنَّة شهيرة أستخدمُها أنا والكثيرون غيري للهواتف الذكية.. لا أنكر أنني شعرتُ بالملل وبعدم الرغبة في الرد.. إنه يردد كلمة (المهم) طوال الوقت.. ولا أجد في كلامِه شيئا مهمًّا أصلًا.. وهو كالخفافيش.. يقف مقلوبًا.. ويرى الحياة معتدلةً!!.. ويريدُني أيضا ككل الرجال.. متزوجٌ ولديَّ أسرة تتواجد في تجمع العائلة الأسبوعي.. في حين أريد أن أكون بعيدا عن الجميع أعيش في خصوصيَّة لا يتطفَّل عليها أحد كما بات معروفًا لدى الجميع.. وقد تصادمت معه كثيرا في الماضي قبل أن أقرر الانسحاب والتعامل معه بهدوء، محاولًا امتصاص اندفاعه وهجومِه الدائم علي.. فقد كان يغضبُ.. لأنني غضبتُ.. لأنه أغضبَني!!.. كيف أتعامل مع شخص كهذا؟!.. دعكم من أنه كحالِ جميعِ أقاربي.. يُسيئونَ الظنَّ بي فقط لأنني أعيش وحيدًا.. وسوء الظن بالطبع يمنح الجميع القصصَ المثيرة.. لهذا يحبونه!!.

في النهاية حسمت الأمر وقمتُ بالرد على الهاتف.. ليُلقي شقيقي تحيةً سريعة وهو يقول:

- أعرف أنك تسهر.. سواء في نوباتك المسائية أو في شقتك.. أودُّ التحدث معك بموضوع هام.

كنتُ أعرف مقدَّمًا ما سيقوله.. فهذا الموضوع الهامُّ -على حد قوله- قتلناه بحثًا ونقاشًا.. لكنه لا ييأس أبدا..

و:

- أنت تعلم أن صحة والدتِنا ليست على ما يرام.. وهي مستعدَّة للقاء خالِقِها كما تؤكّد لنا بنفسها -أطال الله في عمرها- وقد تحدَّثَت إليَّ اليوم بشأنك.. فوضعُك يقلقُها كثيرا.. وهي لا تريد شيئا من العالَم سوى...

قاطعتُه متنهدًا:

- تريدُني أن أتزوج.. لكي ترحل هي عن عالمنا بسلام.. وأعاني أنا؟!.

قال بحدَّة:

- يا دكتور هذه والدتك.. كيف تتحدَّث عنها بهذه الصورة؟!.

قلت موضحًا:

- أطال الله في عمرها.. إنَّني أتحدث فقط من الناحية العلمية والعملية كطبيب.. وكوني أعرف ما تُعانيه من أمراض لم تعدْ قادرةً على مواجهتِها بسبب كِبَرِ سنّها.. لكن الإنسان لا يتزوَّج على سبيل إرضاء الآخرين يا شقيقي العزيز.. حتى لو كان هؤلاء الآخرون والدته وأفراد عائلته.. تذكَّر أنَّني الخسارة.. ولست الخاسر لو اخترتُ أن أبقى وحيدًا.

ردَّ بنفس الحدَّة:

- ألم تنتبه إلى أن عمرك يزحف نحو الـ50؟!.. لم تعد

الخياراتُ متاحةً لك كما كانت في السابق.. تأكد أن الكثيرات سيرفضن الزواج منك.. حتى لو كنت طبيبًا ناجحًا مقتدرًا من الناحية الماديَّة.. إن حياتك سلسلة من الأخطاء.. فمن يترك بيت عائلته ويذهب ليعيش وحيدًا وهو لم يتزوج بعد؟!.. ومَن يبقى أعزبًا في هذه السن وهو يملك ما تملكه من المؤهلات؟!.. ثم ما الذي تحبُّه كثيرا في عُزلتك هذه؟!.. إن ما تفعلُه ليس صحيًّا أبدا.

ما الذي أحبُّه في عُزلتي؟!.. ربما لأن والدي -رحمه الله- أوصاني بالصحبة الصالحة.. ولم أجد صديقًا لي أفضل مني!!.. لم أقل هذا الكلام كي لا يظنَّ أنني أعبث معه.. وقد كدتُ أخبره أيضا أنني لم أغادر بيتَ العائلة هربًا.. بل لكي أعثرَ على ذاتي.. لكن لو قلتها.. فربما سيفقد أعصابَه ويغلق الخطَّ في وجهي أمام هذه الفلسفة التي يراها نوعًا من الغرور والغباء مجتمعَين.. عموما.. كلامه حقيقيٌّ إلى درجة كبيرة.. ومؤلمٌ للغاية مع الأسف.

أعلم أن العلاقةَ الجادة تبدأ بإعجاب.. وقد أبديت إعجابي بالكثيراتِ سابقًا ممَّن زُرْنَنِي في المستشفى من دون أن أبين لهن ذلك.. حتى ظن بعض القراء أنني زيرُ نساء للأسف!!.. إلا أن قلبي يرفض -وبعناد غريب- التمادي إلى ما هو أكثر.. إذ أشعر فجأة ببرود عاطفي غير مفهوم حين أفكر بكسر الحواجز وأخذِ زِمامِ المبادرة لبدء علاقة ما.. ربما ما زلت أخشى الارتباط.

نعم.. حياتي ينقصُها الكثير في غياب فتاة الأحلام.. لكن قد يكون هذا أفضل.. فبوجودها ربما أنقصُ أنا.. لأنها لن تحتمل قوّة اهتمامي.. ولن تحتمل قوّة تجاهلي أيضا.. دعكم من أنني أريد فتاة ترى جانبي المظلم وتقرر البقاء فيه.. وهذا عسير للغاية.

سمعت شقيقي يقطع تسلسل أفكاري ويعيدُني إلى عالم الواقع حين قال بهدوء:

- ابنة خالتِنا (.....) انفصلت منذ سنتين عن زوجِها كما تعلم.. ولديها منه طفلة.. إنها جميلة مثقَّفة وعلى خلق.. أجدُها مناسبة جدا لك.. ووالدتي ستطير فرحًا لو أخبرتها بنيَّتك بالزواج من ابنة خالتِنا.. ما رأيُك؟!.

أخبرته بحسم أنني لن أتزوج بهذه الطريقة أبدا.. ولم أستمع إلى رده.. فقد فُوجِئت بصوت أنثوي يتنحنح.. التفتُ تجاه الباب لأجد فتاةً لا أظن أن عمرها تجاوز الـ20 بعد وهي تنتظر مني الإذن بالدخول.. فأشرتُ لها بذلك وأنا أخبر شقيقي أن أحدهم دخل مكتبي للتو وأن علي إنهاء المكالمة فورًا.. لأفعل ذلك مباشرة من دون الاهتمام لإصراره بأنه سيتَّصل لاحقًا لاستكمال النقاش.

تأمَّلتُ الفتاة سريعًا فوجدتها نحيلةَ الجسد رقيقةَ الملامح.. متوسطةَ القامة ترتدي قميصًا قصيرَ الأكمام.. وشعرُها قصيرٌ نسبيًّا وقد صبغت بعضًا منه باللون

البنفسجي كما تفعل بعض الفتيات مؤخرًا.. لتسألني بخفوت وهي تلتفت بحرج:

- لا أعرف كيف تسير الأمور هنا.. هل من المفترض أن أسجل اسمي عند الاستقبال؟!.. أو أنتظر دوري؟!.. المعذرة.. فأنا لم أدخل مستشفى الطب النفسي من قبل.

قلت موضحًا:

- لا يوجد انتظار.. فكما ترين.. المستشفى خال تماما في مثل هذا الوقت.. إن الحالات الطارئة في مستشفى الطب النفسي قليلةٌ للغاية.

سارت بهدوء لتجلس على الكرسي المقابل لمكتبي.. ثم حاولَتْ أخذَ أكثر أوضاعِ الجلوس استرخاءً.. لتقول:

- نعم.. لاحظت الهدوء الشديد في المستشفى بالفعل.. إنني لم ألتقِ بأحد إلى أن وصلت إلى مكتبك.

نظرتُ إليها مبتسمًا بصمت.. لكنها لم تبادلني الابتسامة.. إذ قالت بانكسار:

- دكتور.. إنني أحتفظ بِسر مرهق حاولتُ التعامل معه معتمدة على نفسي.. لكني أهلكتُها!!.. وأخشى كذلك أن يتطور الأمر إلى ما هو أكثر من مجرَّد الحفاظ على سر.. فربما أتورَّط مع الشرطة رغم أنني لم أرتكب أي جرم.

سألتُها في حيرة:

- كيف ستتورَّطين مع الشرطة إذا كنتِ لم ترتكبِ أي جرم كما تقولين؟!.

ردت بنفاد صبر:

- لأن الحقيقةَ غريبةٌ جدا وغير قابلة للتصديق.. ولن ألومك لو ظننتَني كاذبةً أو مجنونةً.. وأنا واثقة أنني لو أخبرت رجال الشرطة بما حدث لقبضوا عليَّ بتهمة الكذب وإزعاج السُّلطات.. دعكَ من معاناتي اليوميَّة مع أفراد العائلة.

قلت وأنا أمطُّ شفتيَّ:

- المعذرة لكني لم أفهم شيئا، ولا أعرف علاقة كلامك هذا بعملي كطبيب نفسي.

قالت بحرارة:

- ستفهم حين تسمع مني القصةَ بأكملها.. أصدقكَ القول بأنني لا أظن أنك تستطيع مساعدتي أصلًا.. لا أحد يستطيع.. لكني أريد أن أجد من يسمعني على الأقل.. لقد أصبحتُ أُعاني كثيرا بسبب البؤس الذي أراه في محيط عائلتي.. ونظرات الاتهام التي يوجّهُها الجميع لي.. وخوفي من رجال الشرطة.. كل هذا بسبب الكتمان المرهِق لذلك السر والحقيقة التي لن يصدّقها أحد كما ذكرتُ لك.. ولو كنت قرأتَ حكايةَ (الحلَّاق والوالي)(22) لعرفتَ ما

أعنيه.

قلت مبتسما لهذا التشبيه:

- إذا كان مجرد الحديث سيشعرك بالراحة.. فلتتحدثي إذًا.. سأستمع إليك بكل اهتمام.

اعتدلَت في جلستها وهي تنظر إلى البطاقة التعريفية الموجودة على صدري.. لتقول بأدب شديد:

- تشرَّفت بمعرفتِك يا دكتور.. اسمي (نتال).. ودعني أؤكد لك للمرة الثالثة أن ما سأقوله لك هو الحقيقة مهما بدت غرابتها.. وأنا لست هنا للعبث.. لقد.. لقد بدأ كل شيء حين تعرَّفت بذلك الشاب في أحد وسائل التواصل الاجتماعي.. إذ شعرت بالانجذاب لعينيه الحزينتَين وملامحه الهادئة في صورته على حسابه الشخصي.. كما كان يكتب نصوصًا رومانسية جميلة ومؤثرة جعلتني أتابعُه بشغف، وأنتظرُ كلماته الجديدة بصورة مستمرة.. إلى أن قرَّرت التواصلَ معه يوما.

سكتَتْ للحظة.. ثم أردفت وهي تنظر إلى سقف المكتب بشرود:

- لم يطل الأمر كثيرا.. فقد ردَّ على رسالتي خلال ساعات.. وشكرني على إعجابي.. ليدورَ بيننا حديث طويل بواسطة الرسائل النصية.. حيث عرفت أن اسمَه (عماد) وأنه يكبرني بشهور قليلة ويدرس في كلية العلوم.. وأخبرتُه

بالمقابل بكل معلوماتي الشخصية.. لتكون هذه بداية علاقتنا.. ويبدأ بعدها التواصل شبه اليومي بيننا.. كان شابًا لطيفاً للغاية.. أضاف لحياتي لمسةً رائعةً.. وكأنه ورقة نعناع تسبح بهدوء في كوب شاي.

ابتسمتُ إعجابًا لرقة كلامها.. لكن سرعان ما تلاشت ابتسامتي وأنا أسمعُها تكمل:

- دكتور.. إنني على يقين أن معظمَ المشاكل العاطفية تبدأ بسبب عدم تساوي الاشتياق بين الطرفَين.. لكني أؤكد لك أن اشتياقَنا لبعضنا كان متساويًا بطريقة نادرة ملفتة للانتباه.. هذا ما جعلني أوافق بلا تردد على التواصل معه هاتفيا حين عرض علي ذلك.. فاستمعت إلى صوته للمرة الأولى في مكالمة طويلة تبادلنا خلالها حديثا شيقا حول اهتماماتنا وآراؤنا الخاصة.. و.. وقعنا في غرام بعضنا سريعا بعد أيام قليلة.. كنت فيها مستمعة جيدة له.. أما هو فلم يكن يُقاطعني أثناء كلامي إلا من أجل تذكيري بأنني أستحوذ على قلبه أكثر فأكثر.. وقد عرفتُ أنه لا يفعل سوى الذهابِ إلى محاضراته ومن ثمَّ العودة إلى البيت.. إذ تخلو حياتُه من الأصدقاء.. ويشعر بالوحشة القاتلة حتى بين أفراد أسرته على حد قوله.. رغم أنه يعيش وسط عائلة كبيرة، ولديه عدد ليس بالقليل من الأشقَّاء.

قلت متنهدا:

- لا علاقة للأمر بعدد أفراد الأسرة.. إنني أنتمي إلى أسرة كبيرة كذلك.. وأشعر بالوحدة طوال الوقت.. لكني أستغرب من استخدامه لفظة (الوحشة) تحديدًا!!.. هل هو أمر مقصود؟!.

شعرت لحظتها بالندم الشديد لأنني كشفتُ شيئا من تفاصيل حياتي لأحدهم.. لكنها ردت بغموض متجاهلةً كلامي عن أسرتي:

- لقد أخبرَني أن الوحدةَ تعني الحاجة إلى رفيق.. أما العزلة فهي اختيار.. في حين أن الوحشة هي الأسوأ.. كونها متعلقة برفض أفكار المجتمع مع الشعور بعدم الانتماء إلى العالم على حد قوله.. وشعوره هذا لم يكن لأسباب نفسية أو فكرية كما تظن.. بل بسبب ذلك السر الرهيب الذي يُخفيه عني.. سرٌّ لا يعرفه أحدٌ عنه أبدا.. وقد احتفظ به لسنوات.. مما أثقل كاهلَه وأشعره بالاختلاف عن الجميع.. وعبثًا حاولت معرفةَ ذلك السر في كل مرات تواصلنا تقريبا.. إلا أنه ظل يرفض بصبر وهو يؤكد أنني سأعرف كل شيء حين تتوطد علاقتنا أكثر ويتيقن من أننا سنكون معًا طوال العمر.

قلت ببساطة:

- لا شكَّ أنك عرفتِ السر.. وهو سبب زيارتك لي.

ردت مغمغمة برجاء:

- ليتني أضمن تصديقَك لي يا دكتور قبل أن تسمعَ بقيَّة قصتي.. أو على الأقل تعدُني بعدم السخرية مني.. فالذي ستسمعُه لا يصدَّق أبدا.

رغم كل ما مررتُ به في حياتي كطبيب نفسي.. ورغم كل القصص المذهلة التي رَويت لكم بعضًا منها في أجزاء سابقة من مذكراتي.. إلا أن تكرارها لهذا الكلام.. وإصرارها على غرابة القصة استوقفني كثيرا.. وظللت أفكر بهذا السر الذي يُخفيه عنها المدعوُّ (عماد).. وإن كان شيئا غريبًا لم أسمع به من قبل بالفعل كما تدعي (نتال).. ثم طردتُ تلك التساؤلات من ذهني محاولًا منح الفتاة اهتمامي كاملًا مرة أخرى.. ويبدو أنها شعرت بذلك.. فأكملَتْ:

- استمرَّت علاقتُنا لأسابيعَ طويلة، تقابلنا خلالها أكثر من مرة في مقاهي مختلفة.. وكانت نظراتُه تُوحي بالحب.. والاحترام أيضا.. فشعرت براحة شديدة تجاهه وأدركت أن علاقتي به ستكون جادة للغاية.. أعلم أن هناك الكثيرَ ممَّن يُجيدون تمثيلَ دور الشاب المُحب.. فقط للوصول إلى مبتغاهم.. في حين تجدُهم يمثلون نفس الدور مع فتيات أخريات.. وأخريات!!.. لكني أؤكد لك أن (عماد) كان مختلفًا.. وأنه لم يتجاوز حدوده أبدا رغم أنني خرجتُ معه في سيارته أكثر من مرة أيضا.. قبل أن يحدث ذلك التحوُّل الجذري!!.

سكتَتْ فجأة.. لتعتدل وكأنها متحفزة للتحدث عن الجانب الأهم من قصتها.. ثم قالت:

- كان هذا حين سافرَتْ شقيقتي مع زوجها.. وتركت ابنتَها التي لا يتجاوزُ عمرُها 3 أعوام في بيت العائلة تحت رعايتي ورعاية والدتي.. إذ أصيبتْ ابنة شقيقتي بحمّى شديدة مساءَ أحد الأيام.. فطلبت مني والدتي أن آخذَها إلى مستوصف المنطقة.. بالطبع امتثلتُ مباشرةً لكلامِها.. وارتديتُ ثيابي ثم قمت بلف ابنة شقيقتي ببطانيَّة حتى بدت كرضيع حديث الولادة.. ووضعتُها على الكرسي الخلفي في السيارة.. وهي ما زالت غارقةً في نومِها لا تعي ما يحدثُ بسبب الحمّى التي جعلت قُواها تخورُ كما يحدث مع الجميع.. وفي الطريق.. رنَّ جرس هاتفي.. وإذ به (عماد) باتصال معتاد.. لكني اعتذرتُ منه وأنا أخبره بما يشغلني حاليًّا على أن نتحدَّث لاحقًا.. ففوجئتُ به يلتزم الصمتَ للحظة وكأنه يفكر بأمر ما.. ثم أخبرني مباشرةً أنه يرغب برؤيتي الآن وحالًا!!.. وأنه سيخرج من البيت بسرعة ليصل إليَّ كونه في منطقة سكنية قريبة.. لم يكن الوقت مناسبًا أبدا.. لكنه أصرَّ على طلبه بطريقة غريبة.. وأقسم لي بأنه سيخبرُني بالسر الذي يُخفيه عني إذا قبلتُ بلقائه الآن!!.. شرطَ أن تكون ابنةُ شقيقتي معي!!.

فاجأني كلامُها كثيرا.. لماذا يرغب بلقائها في تلك الأثناء تحديدًا وبوجود ابنة شقيقتِها معها كما يقول؟!.. لا أرى

مبررا لذلك.. لكني تركتُ سؤالي هذا لتجيب عليه (نتال) في سياق كلامها.. و:

- كنت قد اقتربتُ من مواقف سيارات المستوصف.. لكن الفضول قتلَني.. ورأيتُ أن لا مانعَ أن ألتقي به الآن.. خاصة وأن اللقاءَ لن يكون طويلًا كما أكَّد لي بنفسه.. فامتثلتُ لكلامه وإصراره على أن نلتقي بعيدا عن أعين الناس.. حيث اختار تلك الساحة الترابية المظلمة في منطقة (الشويخ) الصناعية مقابل منطقة (الخالدية).

أومأت برأسي إيجابا كوني أعرف المنطقةَ جيدا.. لتسترسل هي:

- ذهبتُ بسيَّارتي إلى هناك والشكوكُ بدأت تُراودني بما قد يفعلُه بي (عماد).. لكن ظللتُ أقنع نفسي أنه شاب محترم عرفتُه جيدا خلال الفترة الماضية وأنه يستحقُّ ثقتي.. رغم تساؤلاتي التي لم تتوقف حول إصراره على اللقاء الآن وبوجود ابنة شقيقتي معي!!.. إنها مجرد طفلة صغيرة.. فما الذي يهمُّه في وجودها؟!.

هززتُ كتفي كنايةً عن جهلي وعجزي عن تخمين التالي من قصتها.. لتكمل:

- انتظرته في الساحة المظلمة التي خلَتْ من كل الأضواء عدا تلك التي تخرج من سيارتي.. وأضواء الشارع البعيد نسبيًّا.. شاعرة بشيء من عدم الأمان.. دعك من خوفي

أن تنتبه والدتي لتأخُّري رغم أن انتظاري لم يطلْ كثيرا.. إذ سرعان ما رأيتُ (عماد) في سيارته من طراز (جيب) وهو يصعد بها الساحة الرملية.. قبل أن يركنها بالقرب مني وينزل متَّجهًا ناحيتي.. أما أنا فقد أنزلتُ النافذة إلى النصف تحسبا لأي مفاجأة.. وقفلتُ الباب على نفسي.. أي أنَّني كنتُ متأهبة للهرب رغم ثقتي به.. ربما لأن كل فتاة تعرَّضت لكارثة ما بسبب حبيبِها.. كانت في واقع الأمر تثقُ به.. والواقع أنه لم يمنعني من الهرب سوى الفضول!!.. أريد أن أعرف السر الذي يُخفيه عني (عماد).

وكأنني أنتظر العبارة الأخيرةَ من لغز معقَّد.. العبارة التي ستحلُّ كل شيء.. فأشرتُ لـ(نتال) بلهفة وفضول أن تكمل.. وهي تنظر إليَّ بصمت وقلق.. لتقول بعدها:

- وقف (عماد) عند باب سيارتي.. وألقى عليَّ تحية سريعة بملامح شديدة الجدية.. وهو ينظر إلى ابنة شقيقتي النائمة في المقعد الخلفي.. ليخبرني بصوت خافت مهيب أنه يمتلك موهبةً غريبةً جدا اكتشفها بالصدفة منذ سنوات.. واحتفظَ بالسر لنفسه حتى يومنا هذا.. مؤكدا أن كلامه سيبدو سخيفا للوهلة الأولى.. وأنني لن أصدق منه حرفا.. دكتور.. هل سمعت بـ(الاسترفاع)(23)؟!.. أنا لم أسمع عنه قبل تلك الليلة.

مططت شفتيَّ استغرابًا.. ثم تمالكتُ نفسي لأقولَ بغموض:

- نعم.. أعرف أن (الاسترفاع) يصنَّف تحتَ بند (علم نفس الخوارق) أو الـ(باراسيكولوجي).. ولا أعرف إن كان حقيقيًّا.. فجميع من ادَّعوا امتلاكَهم لمقدرة (الاسترفاع) اتَّضح أنهم يُمارسون خدعةً ما بإتقان شديد.

قالت بذهول:

- يا إلهي.. لا أصدّق أنك تأخذ كلامي هكذا بكل بساطة.. هل يُعقل أنك تصدقني؟!.

رددتُ بصدق:

- لأنني أعرف الكثير عن عالَم الـ(باراسيكولوجي).. كما لا أظنُّك تُعانين أيَّة أمراض نفسيَّة أو تتعاطين أدوية تجعلك تتوهمين أشياء لم تحدث مثلا.

أومأت برأسَها إيجابا بامتنان وهي تتنهَّد بارتياح.. ثم أكملت محاولةً أن تستجمعَ ذكرياتها عن تلك الحادثة:

- كنت أجهل كل شيء عن هذا الأمر.. فراح (عماد) يشرح ويخبرُني أنَّ كل ما يُقال عن (الاسترفاع) مغلوط.. لأن الإنسان لا يستطيع ممارسته على نفسه كما هو متعارَفٌ عليه.. بل يجب ممارسته على جسد بشري آخر.. شرط أن يكون الجسد البشري الآخر هذا خاضعا له.. أي نائما بعمق أو غائبا تماما عن الوعي كي لا يُبدي العقلُ أيَّة مقاومة.. لهذا السبب أراد مني المجيءَ بابنة شقيقتي كون الشروط

تنطبقُ عليها على حد قوله.. فقط كي يستخدمَها في تجربة (الاسترفاع) أمام عيني.. مؤكدا أنني لن أصدّقه إلا بهذه الطريقة.. وهو محقٌّ في ذلك.. فحتى لو رأيتُه في تصوير فيديو مثلا لما صدَّقته.. أنت تعرف يا دكتور كم الاحترافيَّة التي يمارسُها البعض في صنع لقطات مزيفة تخدع الكثيرين.

قلت بخفوت ورهبة:

- يا إلهي!!.

أردفَتْ متجاهلةً ردَّة فعلي:

- يقول إنه اكتشف مقدرته بهذه الطريقة وبالصدفة ذات يوم مع أحد أطفال أقاربِه الذي كان نائمًا بسلام.. ففوجئ بالطفل يرتفعُ قليلا عن السرير.. حيث تطلَّب الأمرُ بعض الوقت ليستوعب أنَّه السبب وراءَ ذلك.. وقد كرَّر التجربة مرة أخرى وأخرى مع أطفال آخرين.. وهو يلجأ دوما للأطفال كون التحكُّم في أجسادِهم أسهل بكثير بسبب استسلامهم التام للنعاس.. على عكس الكبار.. كما أنه لا يريدُ ممارسةَ التجربة على الكبار أصلًا لأنه لا يريد إخافة الناس أو يثير شكوكهم.. وكي لا يفسر أحد ما يفعله بأنه على اتصال بالجن مثلا.. ففضل الاحتفاظ بالسر لنفسه.. خاصة وأنه لا يعرف كيف يستفيد من مقدرتِه تلك أصلًا.

سكتَتْ قليلا وهي تنظر إلي.. ثم أكملَتْ بحنق:

- ورغم كل هذا.. لم أصدقه بالطبع.. وبدوت غاضبةً وأنا أخبره ألَّا يهزأ بعقلي بمثل هذا الهُراء وألا يؤخرني على أخذ ابنة شقيقتي إلى المستوصف.. لكنَّه بدا هادئًا وهو يؤكد أنه سيحسم كل شيء ويثبت صدقَ كلامِه الآن.. وراح يرجوني ألا أشعرَ بالخوف منه.. وأنه يخبرني بهذا السر فقط لأنه يحبُّني ويريد أن يكون معي طوال العمر.

لم أقل شيئا.. بل انتظرتُها تلتقط أنفاسها.. لتكمل بعد لحظات:

- وأمام صمتي التام.. طلب مني برجاء أن أخرجَ من السيارة وأفتحَ الباب الخلفيَّ لأرى بنفسي ما سيفعلُه بابنة شقيقتي، مؤكدا أنها لن تتعرَّض لأي خطر.. ولن تشعر بما سيفعلُه بسبب مرضِها ونومها.. ثم ذهب إلى سيارته ليخرجَ منها مفرشًا وضعه على الأرض الرمليَّة.. واتجه ناحيتي بعد أن خضعْتُ له لا شعوريًا، ونزلتُ من سيارتي كي أفتح له الباب الخلفي بالفعل.. لينحني ويحمل ابنة شقيقتي وهي نائمة كالملاك ليضعها على المفرش وهو يلتفتُ حولَه بحذر ويطلب مني بجدية ألا أخرجَ أي صوت.. لأنه يحتاج إلى التركيز الشديد.

هل أصدق ما تخبرني به (نتال)؟!.. لا أعلم.. لكني لن أكذبها فقط لأنَّ ما تقوله غريب.. فأنا أترك العاطفة حين يتعلَّق الموضوع بالبحث العلمي.. وأعرف أن هناك أقاويلُ كثيرة عن تلك الظواهر التي لم يثبتها العلم أو ينفيها

حتى الآن.. ولا أعرفُ إن كنتُ سيئ -أو حسن الحظ- لأشهد بعضها بنفسي.. لكن.. قلت فجأة مستذكرا بعض معلوماتي:

- بغض النظر عن غرابة القصة.. فإن ما يفعلُه (عماد) هو (التحكُّم عن بعد) بواسطة العقل.. وليس (الاسترفاع).. أو لنقل إنه مزيجٌ من (الاسترفاع) و(التحكُّم عن بعد).. وهذا أمرٌ لم أسمع به من قبلُ.. ولا حتى في قصص الخيال العلمي.. يبدو أن الواقعَ يصرٌّ دوما على مفاجأتي.. وبات يفوق الخيال نفسه!!.

لم يهمَّها كلامي كما يبدو.. إذ تجاهلت ملاحظتي وأردفَتْ:

- تخيل أنني وقفتُ مشدوهةً مصدومةً غيرَ مصدقة أن شيئا كهذا ممكنُ الحدوث.. أنظر إلى (عماد) في حيرة وذعر وقد أغمضَ عينيه.. ليفتحهما فجأة بعد لحظات محدقًا بجسد ابنة شقيقتي وهو في حالة تركيز شديد.. ثم راح يشيرُ إليها بيدَيه الخاليتَين ويرفعُهما في الهواء.. وكأنَّه يرفع شيئا ثقيلًا غير مرئي.. حتى احمرَّ وجهُه وكدتُ أشهدُ عروق رقبته وهي تبرز بطريقة مخيفة.. عندها فقط.. كاد قلبي أن ينخلع من مكانه!!.. إذ رأيتُ جسد ابنة شقيقتي يرتفع عن الأرض يا دكتورا!!.. يرتفع بهدوء شديد لكن بشيء من السرعة.. إلى أن وصل جسدُها إلى مترين -أو ربما أكثر- عن الأرض.. فبت أرفعُ رقبتي وأنا أنظر إليها

معلقةً في الهواء.. وجسدُها مستمرٌّ بالارتفاع.. و.. يبدو أنه أراد التوقُّف وإنزالها على الأرض بعد أن أثبتَ لي مقدرته.. إلَّا أن شيئا ما حدثَ له.. فقد رأيتُ أنفه ينزفُ بغزارة.. ليفتحَ عينَيه فجأة محدقا في الفراغ.. ويخرُّ صريعًا!!!.

قلت بذعر:

- هل .. هل مات؟!.

اغرورقَت عيناها بالدموع وهي تقول:

- نعم.. شيءٌ ما حدث له.. ربما قلبُه لم يحتمل.. ربما شرايين دماغِه انفجرَت إن كان هذا صحيحا طبيًّا.. لماذا هذه المرة تحديدا وقد أكد لي قبلها أنه مارس التجربة أكثر من مرة سابقا؟!.. لا أعرف.. في حين ظلت ابنة شقيقتي ترتفع من دون توقف.. وتجاوزَ ارتفاعُها 10 أمتار تقريبا.. وكأنَّك ترى بالونًا ممتلئًا بالهيليوم يصعد بهدوء إلى أن يغيب عن ناظرَيك وأنت تنظر إليه بحسرة وتعجز عن الوصول إليه.. هل تتخيَّل ما مررتُ به؟!.. كنتُ مجرَّد فتاة عادية تقوم بواجبها العائلي تجاه ابنة شقيقتها المصابة بالحمّى.. ليتغيَّر كل شيء فجأة.. وأشهد ظاهرة مرعبة لم أسمع عنها في حياتي.. وأشهد أيضا وفاة الشاب الذي أحببتُه.. ثم -وهذا الأقسى والأكثر رعبًا- أرى ابنةَ شقيقتي ترتفع وترتفع وسط الظلام مبتعدةً عن الأرض وهي نائمةٌ لا

تعي ما يحدث.. إلى أن غابَت عن أنظاري تماما!!.. إلى متى ستظل ترتفعُ هكذا؟!.. وهل ستستيقظ فجأة لتقع مِن على هذا الارتفاع بكل قسوة وتتكسَّرَ كقطعة بسكويت؟!.. أم أنها ستصل إلى الغلاف الجوي وتختنق هناك؟!.. لا أعلم.

لو سمعتُ هذه القصة في بداية عملي كطبيب نفسي.. لانفجرتُ ضاحكًا.. لكن -وكما أقول دوما- ما مررتُ به طوال حياتي المهنيَّة يجعلني أنظر إلى الأمور من زاوية أخرى.. وأنَّ علم الـ(باراسيكولوجي) من الممكنِ جدا أن يكون حقيقيًّا بعد أن شهدْت العديد من القصص التي تُرجّح ذلك.. فمرَّرتُ أصابعي بين خصلات شعري وأنا أقول:

- يا للهول.. لو كانت قصتك حقيقية فهذا يعني أنك الآن في كارثة.. كيف واجهتِ أفراد عائلتك؟!.. بل كيف واجهت الشرطة؟!.

لم تحتمل كلامي.. فقد انفجرَتْ باكيةً كالأطفال وهي تقول بنبرة المظلوم:

- بالضبط يا دكتور.. لك أن تتخيل حجم الضغط الذي عشتُه في تلك الأيام.. هل تذكر حين أخبرتك في بداية قصَّتي أن الحقيقة لن يصدقَها أحد أبدا.. وأن الكذبَ أصعب؟!.. أعتقد أنك تفهمني الآن.. فما الذي سأقوله؟!.. وكيف سأبرر للجميع اختفاءَ ابنةِ شقيقتي

وسقوط (عماد) صريعًا أمام عينيَّ؟!.. تخيَّل أنني ظللتُ أكثر من نصف الساعة أنظر إلى جثَّته بعد أن تأكَّدتُ أنه مات بالفعل.. وأنظر إلى السماء بحسرة.. عالِمةً أن ابنة شقيقتي لا يمكن أن تنجوَ من سقوط كهذا.. ولا يمكن أن تعود إلى الأرض بهدوء كما صعدَت.. فمن تسبَّب في ذلك توفي للتِو.. لذا اتخذت قراري وأنا أعيشُ أكثر لحظات حياتي هلعًا.. إذ هرعت إلى سيارتي.. ورحت أقودُها عائدةً إلى البيت وأنا أبكي وجسدي كله يرتجف.

وضعَت يدها على رأسها وكأنها تعيش لحظات الضياع تلك ثانية.. لتكمل:

- وحين وصلتُ.. وجدتُ والديَّ باستقبالي وهما ينظران إليَّ بذعر ويسألاني عن سبب تأخُّري وعدم ردّي على اتصالاتِهما.. صدّقني لم أنتبه لاتصالاتِهما أصلًا مِن هول ما رأيتُ.. ثم وجدتُ نفسي أصرخ باكيةً مدَّعية أنني تركتُ ابنة شقيقتي نائمةً في السيارة.. ونزلتُ إلى السوق المركزي لشراء شيء ما قبل ذهابي إلى المستوصف.. وقد نسيت أن أقفل الباب.. فاختطفها أحدهم!!.. إنها القصة الوحيدة التي وجدتها منطقية.. في حين تجنَّبت تماما الحديث عن تجربتي المروعة مع (عماد).

كانت انفعالاتُها صادقة جدا.. أو على الأقل هي مقتنعة أنها تروي لي الحقيقة.. وكما أقول وقلت دوما في مذكراتي السابقة.. لا يوجد أي دافع يجعل أحدَهم يزور مستشفى

الطب النفسي ويلتقي طبيبًا لن يراه مرة أخرى على الأرجح.. فقط ليكذبَ عليه.

ظللتُ أنظر إليها بأسف وهي تكمل:

- كنتُ أصرخ وأبكي أمام والديَّ.. مما ساعدني كي أبدوَ صادقةً جدا في سرد قصتي.. وبالطبع أثار كلامي رعبَهما.. ليمسكني والدي من يدي ويسحبني معه سريعًا إلى الخارج من دون أن يرتدي ثيابًا لائقة.. وهو يطلب من والدتي أن تبقى وتنتظر وسط اعتراضها.. و.. لا أذكر كيف وجدت نفسي معه أمام مخفر المنطقة.. حيث دخلنا مباشرة ليبلغ والدي عن اختطاف حفيدتِه.. ولك أن تتخيل حال شقيقتي حين علمَت بما حدث.. فقد عادت في أوَّلِ رحلة إلى (الكويت) بعد يومَين تقريبا.. وكانت تعيش حالة من الانهيار مع زوجِها.. ليهرعا إلى بيتنا حال وصولِهما.. وتركض هي تجاهي في اللحظة التي رأتني فيها.. كي تنهال علي صفعًا وضربًا وهي تشدُّ شعري وتتَّهمُني بالإهمال.. حتى امتلأ جسدي بالكدمات لأسابيع.. أما كلامها فقد شطرَني إلى.. دمعتَين!!.. في حين راح زوجُها ينظر إليَّ باشمئزاز وحقد وكأنه يتمنَّى لو كان باستطاعته قتلي.

قلت متعاطفًا:

- لقد احتملتِ الكثير.. الكثير جدا يا (نتال).. لكن كما

قلتِ بنفسِك.. فإن الكذبَ والظهور بمظهر الفتاة المهملة أكثر إقناعًا مما حدث في عالَم الواقع.. المهم.. كيف سارت الأمور بعد ذلك؟!.

ردت بألم:

- دائما أسمع من يردد مقولة (كما تدين تُدان).. لكن يبدو أنك حتى لو لا تدين أحيانا.. ستُدان أيضا!!.. فقد مرَّت على تلك الحادثة بضعة شهور.. لكني ما زلت مكروهةً منبوذةً من الجميع.. دعك من شقيقتي التي أقسمَتْ أنها لا تريد أن تراني بعد اليوم.. وبقيَتْ حياتي بين البيت والكلية فقط.. فلا أحد يكلمني.. ولا أكلم أحدًا.. بعد أن فقدتُ ابنة شقيقتي.. وخسرتُ شقيقتي.. وكسبتُ كراهيَّة زوجها.. وللأسف.. لم أظن يوما أنه بالإمكان أن يكون القرد في عين أمه.. قردًا!!.. فهذا ما أشعر به من نظرات والديَّ.. لقد حاولت التغاضي عن الإساءات لإبقاء الود.. لكن الودَّ رحل.. وكرامتي رحلت معه بعد أن باعني الجميع!!.. دعك من أنني فقدت الشاب الذي أحببته.. ومن الصعب للغاية أن أحب مرة أخرى.. فحتى لو حدث ذلك.. سأبحث عن (عماد) في الحب الجديد.. مما يعني فشلَ العلاقة قبل أن تبدأ.. أحيانا أفكّر أن أخبرهم بالحقيقة.. لكني أتذكَّر تفاهة عقولهم واستحالة استيعابهم لِما عرفْتُ.. والنقاش مع التافه مربِك يا دكتور.. تندم حين تناقشه.. وتشعر بالقهر حين تسكت.. أو.. ربما لا أستطيع

توجيهَ اللوم لأحد.. فجميعُنا لا يمكن إقناعنا بعكس ما هو متعارف عليه.. لقد وُلِدنا وتمَّت برمجتُنا على واقع محدَّد.. وكل ما عداه لا نصدّقُه.

غرقت بعد ذلك في بكائها.. فقربت منها علبة المحارم الورقية.. لتأخذ واحدة وتتمخط فيها.. ثم تأخذ أخرى لتمسح دموعَها.. هذا كثير.. كثير جدا.. لا يمكن أن تحتمل المسكينة كل ما مرت به وهي لم تفعل شيئا أصلًا.. ثم سألتها بخفوت:

- ماذا حدث لابنة شقيقتِك بعد ذلك؟!.. ألم يعثروا عليها؟!.. أو حتى على جثمانِها لو كانت قد سقطت من عُلو؟!.

هزَّت رأسَها نفيًا وهي تقول:

- يبدو أنها ظلت ترتفع من دون توقف.. وربما اختنَقت في طبقات الجو العُليا.. أو تجمَّدت من البرد.. أي أنها ماتت على الأرجح وتحوَّلت إلى قمر صناعي بشري.. قد يعثر عليها أحدُهم يوما.. أو تصطدم بها طائرة رغم الصورة الهزليَّة التي قد تخطر ببالك.. أو.. ربما تكون قد خرجَت من غلافنا الجوي.. لاحظ أنه قد مرَّت فترة طويلة على اختفائها.

ظللتُ أفكر بابنة شقيقتها المسكينة المعلّقة في الفضاء بصورة قد تبدو خياليةً مضحكة للوهلة الأولى.. فلَو فكّرنا

جيدا.. ولو كانت القصة حقيقية.. سنجد أن حال الطفلة لا يختلف عن حال من يُدفن حيًّا بالخطأ.. بل وحتى من دُفنوا أحياء في الماضي -قبل تطوُّر الطب- كانت لديهم فرصةٌ جيدة للنجاة بواسطة توابيتِ السلامة على الأقل(24).. على عكس تلك الطفلة التي ربما استيقظَتْ ووقعت من أعلى ارتفاع في مكان ما.. أو ربما اختنقت في الفضاء وظلتْ تحوم هناك كقمر صناعي بشري كما تقول (نتال).

ثم.. تذكَّرتُ أمرًا هامًّا.. فسألتُ:

- مهلًا.. ألم يتوصَّل رجال الشرطة إليك حين عثروا على جثمان (عماد)؟!.. مِن المؤكد أنهم تتبَّعوا اتصالاتِه.. وعلموا أنه تحدَّث إليك هاتفيًّا قبل وفاته بفترة قصيرة.

وكأن سرعةَ بديهتي أعجبتها.. إذ أشارت إليَّ بإصبعِها مؤيدة بعد أن هدأت قليلا.. لتقول:

- بالفعل.. لقد تواصلوا معي.. وسألوني إن كنتُ أعرف شيئا عن موته.. أو عن سبب تواجده في ذلك المكان.. لكنني أنكرتُ كل شيء.. سوى علاقة الحب التي كانت تجمعني به.. فهذا أمر لا يمكن إخفاؤه بسبب التواصل الهاتفي المستمر بيننا لفترة طويلة نسبيا إلى ما قبل وفاته بدقائق.. ويبدو أنهم حسموا موتَه على أنه حالة وفاة طبيعية.. وإن كانت غامضة.

تجاوزتُ هذه النقطة لأقول بتعاطف:

- أعرف أن كلامي لن يعني لك الكثير.. فمَن يده في النار.. ليس كمَن قلبه في النار!!.. لكن تذكّري أن مشوار الألف ميل لا يبدأ بخطوة أبدا كما يقال.. بل يبدأ بحفرة!!.. هي التي تجعلك تقررين الانطلاق والنهوض في حياتك.. عليك بإجراء تغييرات كثيرة لتكوني فتاة أفضل في نظر نفسك.. يجب أن تمتلئ حياتُك بالخطط والأحلام.. وأن تسعي بقوة لتحقيقها.. ومن الجيد أيضا ممارسة الرياضة.. وإلا ستغرقين في دوامة الاكتئاب(25) الحاد لو سارت الأمور كما هي عليه.. وتأكدي أن بإمكانك زيارتي أو التواصل معي في أي وقت كوني الوحيد الذي يعرف هذا السر.

قلتها وأنا أخرج لها من محفظتي بطاقةً تحوي بياناتي الشخصية ورقم هاتفي.. لتأخذها بامتنان وهي تؤكد أنها تشعر بحال أفضل بعد أن تحدثت إلي.. فتلك المسكينة عرفت حقيقةً لا يعرفُها سواها.. وسيراها الناس كاذبةً أو مجنونةً لو أخبرَتْهم بها.. وهو ما يذكرني إلى حد ما بالقصة المؤلمة لذلك العالِم الهنغاري الذي اكتشف حقيقة (حُمَّى النِّفاس)(26).. تلك الحقيقة البسيطة التي لم يعرفها غيره في وقتها.. فدفع الثمن غاليًا نتاج ذلك للأسف حين أعلن عنها أمام الملأ(27).

ثم أخبرتُها بتعاطف أن تترك لي رسائل صوتية في هاتفي

متى ما أرادت.. وأنني سأردُّ عليها بكل اهتمام.. أدرك جيدا أن هذا ليس جزءًا من عملي.. لكنني أحاول تقديم كل مساعدة ممكنة.. فكما قلت سابقًا.. إن مهمة الطبيب النفسي تحسين جَودة الحياة.. وليس فقط تأخير الموت كما يفعل الطبيبُ الباطني.. آملًا أن تتحسن جودة حياة (نتال) نتاج تواصلِها معي.. وأن تتغير حياتها إلى الأفضل.. ونحن عموما نتغيَّر دوما بعد الألم.. ليس حبًّا بالتغيير.. بل لأن الألم وصل إلى جذورنا.. وبات قريبًا للغاية من قتلنا حزنًا.. حينها إما أن نستسلم له ليُلقيَ بنا إلى بئر الاكتئاب الذي لا قرارَ له.. أو نختار أن نكون أفضل.. ونعمل من أجل ذلك.. ولا مانعَ أبدا بالطبع أن نحصل على مساعدة من طبيب نفسي.. أو أي شخص آخر قادر على مساعدتنا لنتجاوز هذا الألم.

رعب في بيت الأسرة!!

يحكيها: جميع أفراد الأسرة

الزيارة الأسبوعيَّة المملَّة لبيت العائلة.. أو ربما أنا المملُّ.. لا أعلم.. لكن كيف لا أشعر بالملل أمام الحديث المكرَّر الذي أسمعُه كل أسبوع.. وأمام تلميحات الجميع لي بالزواج؟!.. لا شك أنكم تشعرون بالملل كذلك.. فحتى أبناء أشقائي باتوا يتحدثون معي حول الأمر نفسه.. ولا ننسى -من ناحية أخرى- أحد أشقائي الذي أضاع نفسه ووقته فقط ليكون كوميدي العائلة الأول.. وهو خطأ فادح حين تسمح للجميع أن يروا النسخة التافهة منك.. للأسف هناك من يكاد يموتُ من الرغبة بإثارة الانتباه.. ليتهم يفكرون بإثارة الاحترام.. لكن إثارة الاحترام تتطلب الكثير من الجهد والوقت.. بعكس إثارة الانتباه التي لا تحتاج سوى لتصرفات غبية مضحكة ينساها الجميع فيما بعد، ومزاح سخيف أكرهه كثيرا لأنه غالبا ما يلامس جروح الآخرين.. لذا.. وبدلًا من فتح النافذة لأتقيًّأ هذا الإزعاج الذي ملأني.. استأذنت متعللًا باقتراب نوبتي المسائية في المستشفى.. وكنت صادقًا في هذا.

ركبتُ سيَّارتي وأدرْت المحرك.. ثم بحثت عن أغنية مناسبة.. لأنفجر باكيًا وأنا أقود متجهًا إلى المستشفى.. وأفكاري تذهب بي إلى أزمنة وأماكن مختلفة.. غريبٌ

أنني أمتلكُ دوما الرغبةَ في الرحيل.. حتى حين أرحل!!..
والأغرب أنني لا أعاني أي مشاكل.. هي فقط مشاكل
خيالية.. لكن صدقوني.. التعامل مع مشاكلنا الخيالية
مرهقٌ للغاية.. أظن -مجرَّد ظن- أنني مصاب بـ(متلازمة
الكوخ)(28).

فتختلط عليَّ المشاعر.. وأتساءَل بحيرة شديدة إن كانت
هذه هي الحياة التي أتمنّاها بالفعل.. وأتساءل أيضا عن
الأشياء التي من الممكن أن تسبّب لي السعادة.. فتتسع
عيناي ألمًا حين أنتبه إلى أنني أمتلكُ كل ما أرغب به..
وأعيش رفاهية يتمناها أي شخص.. ومع ذلك أُعاني من
غصَّة التعاسة التي أشعر بها دوما.. أعتقد أن أزمة منتصف
العمر ستنضم إلى كوكتيل الاضطرابات النفسية التي
أعانيها(29).. فالظروف إيجابية.. لكنَّ مشاعري سلبية.

وصلت إلى المستشفى حيث الهدوء التام لأركن سيارتي
وأسير تجاه المدخل الرئيسي ملقيًا نظرة عامة على كل
أنحاء المبنى الذي قضيت فيه سنوات طويلةً من عمري
كما تعلمون.. فمشيتُ بهدوء بعد إلقاء التحية على من
صادفتهم من إداريين وعمال نظافة.. محاولًا التركيز على
البلاط وأن أسير على المربّعات شرط ألَّا أدوس على
حدودها لكي أربح الجائزة.. أيَّة جائزة؟!.. لا أعلم.. لكن
هذا ما تخبرني به مشاعري وهي تُخرِس عقلي وتطلب منه
عدم التدخل وإفساد التحدي!!.

جلستُ بعدها في غرفتي مرتديًا معطف الأطباء.. إيذانًا ببدء نوبتي المسائية.. ثم رحت أنظر في الأوراق الموجودة على مكتبي والتي تخصُّ بعض المرضى من نزلاء المستشفى الذين أتابع حالتَهم.. قبل أن أرى أحد موظَّفي الاستقبال وهو يأتي برجل مع زوجته.. فيلقي علي التحية ويخبرني أنهما يرغبان باستشارتي بأمر ما.. وقد عرض عليهما شُرب الشاي في مكتبه إلى حين وصولي.. كونه يعرفُ الرجلَ من إحدى المجالس -أو (الدواوين) كما نقول في (الكويت)- على حد قوله.. وكون طبيب النوبة السابقة قد رحل مبكرًا لظرف خاص.. ليتركهما معي مع توصية أن أمنحهما كل اهتمامي.. عموما.. نحن لسنا في مطعم يا عزيزي.. فمن واجبي منح الاهتمام لكل من يزورني.

رحبت بالزوجين وطلبتُ منهما الجلوس محاولًا في نفس الوقت قراءة ملامحهما.. لا يوجد شيء ملفت بشأنهما سوى اهتمامهما بأناقتهما.. فهما يبدوان كأي زوجَين في أواخر الثلاثينيات ربما.. يحملان نظرات متشابهة وكأن هناك مشكلة تؤرقهما معًا.

سألتُهما بابتسامة مرحّبة عما يمكنني تقديمُه لهما.. ليقول الزوج مباشرة:

- المشكلة يا دكتور تكمن في ابنتي.. إنها في الـ 12 من العمر.

سألته بحذر:

- يهمني قبل كل شيء أن أعرف طبيعة حياتك الأسرية والجو العام في بيتك.. فنحن هنا نتحدث عن طفلة تحتاج أن تمنحها أسرتها الحب والرعاية والاهتمام.. أخبرني.. هل تتشاجر مع زوجتك أمام ابنتك؟!.. وكيف هي علاقةُ ابنتك مع أشقائها إن كان لديها أشقاء؟!.

مع أسئلة أخرى تدور حول نفس المحور.. لأن مشاكل الأطفال التي تصلني غالبا ما ترتبط بمشاكل بين الأبوين.. لكن.. ردت الزوجة باستنكار وكأن في سؤالي هذا تهمةً تريد إبعادها عن أسرتها:

- إن أسرتَنا متحابَّة تعيش حياة هادئة بعيدة عن المشاكل.. وهذا ما يجعلنا نستغرب كثيرا من تصرُّفات (بيسان) التي لا تتوافق أبدا مع بيئتها أو حتى سنّها الصغيرة كونها في الـ 12من العمر كما أخبرك زوجي.. أما عن أشقائها فليس لديها سوى شقيقتها الصغرى (ليال) ذات الـ 10 أعوام.. وهي فتاة طبيعية لحسن الحظ.

ابتسمتُ وأنا أسمع اسم (بيسان) الذي يبدو مميزًا للغاية وإن كنت أجهل معناه.. لكن.. لن أسألهما عن معنى الاسم.. فنحن لسنا في حفل تعارف هنا.. سأبحث عن المعنى لاحقًا(30).

أثار كلام الزوجة اهتمامي.. خاصة مع وصف الشقيقة

الصغرى (ليال) بكلمة (طبيعية).. لأن هذا يعني أن (بيسان) غير طبيعية.. لكني فضَّلت السكوت وعدم طرح أي سؤال آخر لحين الاستماع إلى القصة كاملة.. لتسترسل الزوجة:

- دكتور.. ابنتنا (بيسان) طفلة هادئة وتلميذة متفوقة في دراستها، وعلى قدر كبير من الجمال.. لكنها.. لكنها.. شريرة!!.

طفلة شريرة؟!.. لم أسمع بأحد يصف طفلا بهذا الوصف الغريب من قبل.. لكني ظللتُ ساكتًا مستمعًا.. لتكمل الزوجة:

- إنها ترتكب أفعالًا شريرة مرعبة.. حتى بتنا جميعا نخشاها ونتساءل عما ستفعله لو كبرَت قليلا ودخلت مرحلة البلوغ!!.

طرحت سؤالي المتوقع:

- ما هي الأفعال الشريرة هذه؟!.. وعلى أي أساس وصفتِها بالشر؟!.. ربما هي أنانيَّة فقط.. فكل طفل قد يمتلك بعض الأنانيَّة.. لكن يأتي هنا دور الأبوين لتوجيهه و...

قاطعتني الزوجة بحنق وهي تقول:

- دكتور أرجوك.. استمع إلينا ولا تقاطعنا.

المشكلة أن غالبية الحالات التي تمرُّ علي يراها أصحابُها مشاكل حياة أو موت.. في حين أراها أنا مجرَّد أمراض نفسية عادية تتطلب العلاج الدوائي فحسب.. وهو أمر طبيعي بالنسبة لأي طبيب يعالج عشرات المرضى يوميًا.. فيستعجل أحيانا في تشخيص بعض الحالات مما يُوقِعُه في الحرج أمام الناس كما حدث للتو.

سكتُّ متجاوزًا الموقف.. وأشرت لهما أن يُكملا.. فأخرجَتِ الزوجةُ ملفًّا صغيرًا من حقيبتها.. ووضعته أمامي وهي تقول:

- إنها رسومات (بيسان).. لقد عثرت عليها بعد التفتيش في أغراضها.. أريدك أن تطلع عليها.

ارتديتُ نظاراتي.. وفتحت الملف الذي احتوى على عدة رسومات، تصفَّحتُها وعيناي تتسعان دهشةً تدريجيًا.. فهناك امرأةٌ مقطوعةُ الرأس تخرج الدماء من رقبتها بغزارة.. ورَجُلٌ امتلأ جسده بطعنات الخناجر.. حتى بات ينزف من كل مكان.. ورسومات كثيرة محورُها العنف والدماء والقتل.. صحيح أن الرسومات لا تُوحي بأيَّة موهبة فنية قادمة.. لكنها كانت مرعبة.. حتى لتتساءل عن عقل الطفل الذي رسمَها وبِم تأثَّر بالضبط كي يُخرج لنا خيالُه كل هذه البشاعة؟!.

نظرت إلى الأبوين بهدوء وقد بدأتُ أفهم المشكلة.. ثم

سألت:

- واضح أن ابنتَكما تحبُّ العنف والبشاعة.. ربما تقرأ قصصًا أو تشاهد أفلامًا أو مسلسلات لها هذا التأثير.. فالوصول لقصص وأفلام الكبار لم يَعُدْ عسيرًا على أحد في هذا الزمن.

ردت الزوجة بتوتر شديد:

- المشكلة أن ابنتي لا تكتفي بتلك الرسومات البشعة فحسب.. وإنما تمارسُ أفعالًا شريرة أيضا!!.

انتفضتُ في مكاني وأنا أسألها بقلق:

- هل قامت بإيذاء أحد؟!.

ردت مباشرة:

- نعم.. لقد مارست أفعالًا مروعةً.. منها ما فعلَتْهُ مع خالتها (شقيقتي).. حين كانت المسكينة نائمة ذات يوم في إحدى غرف بيت العائلة أثناء الزيارة الأسبوعية.. إذ دخلَتْ عليها (بيسان).. وركلَتْها في معدتها بكل قوَّتها لأكثرَ من مرة.. مع العلم أن خالتَها كانت حاملًا بشهرها السادس.. فتسبب ذلك بنزيف حاد أجهضَ حملَها.. وبالطبع تسبَّب ذلك أيضا بهزة عنيفة في محيط العائلة.. وكاد زوج شقيقتي أن يفتك بـ(بيسان).. لولا أن قام الجميعُ بتهدئتِه وتذكيره أنها ليست سوى طفلة.. وإن كانت فِعلتها لا تدل

على ذلك!!.

قلت متألما بكلمات هامسة:

- لماذا فعلَت ابنتُكما شيئا كهذا؟!.

هزّا كتفيهما أن لا يوجد أي سبب.. بل أكّدت الزوجة أن خالتها تحبُّها كثيرا ولم تُسئ لها يوما.. ثم تحدث الزوج لأول مرة قائلًا:

- لم تكن هذه الحادثةَ الأولى.. فقبلها قامت (بيسان) بضرب صديقة شقيقتها (ليال) -التي جاءت لزيارتنا ذات يوم- بعصاة غليظة حتى فجَّرَت الدماء من رأسها.. ولك أن تتخيَّل صدمة ما حدث علينا أو على والدَي صديقتها.. حيث تطلَّب الأمر اعتذارات كثيرة وصلت إلى درجة التوسُّل كي يُسامحنا والداها على ما ارتكبَتْه ابنتنا.

ساد الغرفةَ بعض الصمت وأنا أفكر بما قاله الزوجان للتو.. ليلتفتَ الزوجُ ناحيتي فجأة وكأنه تذكر أمرًا هامًّا.. إذ قال:

- بالمناسبة يا دكتور.. إننا على درجة كبيرة من الثقافة والوعي.. فنحن لم نضرب (بيسان) رغم كل أفعالِها.. وأنا شخصيًّا شديدُ القرب منها.. وأحاول مصادقتَها دائما.. لأنني على يقين أن العنف والرقابةَ الدائمةَ والقسوةَ لن يعلّموا الطفل الصواب.. وإنما سيتعلم الخوفَ من الحياة.. وأن يخفضَ رأسه ويخسر معاركه قبل خوضها.. لذا

حاولنا التحدُّث إليها بعقلانيَّة ومنطقية أكثر من مرة لفهم أسبابِ ارتكابِها لتلك الأفعال الشنيعة.. لكنها ظلت تردد أنها نفسها لا تعرف لماذا فعلَت ذلك.. إنها فقط الرغبة الشديدة والسعادة بممارسة تلك الأفعال الشريرة!!.. ولا تنتبه إلى سوء أفعالها إلا حين ترى نتائجها.. عندها فقط تنهار وتبكي حزنًا وتطلب منا أن نسامحها.. قبل أن ترتكب مصيبة أخرى.

سكتُّ قليلا متأملًا كلماتِه الجميلة التي قالها في بداية حديثه.. فعلًا.. لم أجد فتاةً قريبةً من والدِها إلا وكانت حالتُها النفسيَّة مستقرَّةً مهما كانت ضغوطات الحياة عليها.. وغالبا الفتاةُ المحطَّمة نفسيًّا تكون كذلك بسبب عدم وجود دور لوالدِها في حياتها أو لأنه قاسِي القلب.

تجاوزتُ تلك الخواطرَ محاولًا العودةَ إلى الموضوع.. فسألتُهما:

- في أي سن بدأت (بيسان) بارتكاب أفعال كهذه؟!.

ردت الأم:

- منذ سنة أو أكثر قليلا.. وقبل ذلك كانت فتاة عادية لا يوجد ما يستحق الذكر بشأنها.. وإلى جانب الحادثتين اللتين أخبرناك عنهما.. هناك حوادثُ أخرى متفرّقة تتعلَّق معظمها بتعذيب وقتل الحيواناتِ البريئة للأسف.. حتى أصبحنا نراقبها طوال الوقت ولا نفارقها سوى أوقات

النوم.. ورغم ذلك لم نتمكن من ردعِها.. فقد تسللتْ إلى غرفة الخادمة منذ بضعة أيام في وقت متأخّر من الليل وضربَتها بزجاجة عطر ثقيلة.. حيث استيقظنا على صراخ الخادمة.. لنهرعَ إليها ونجدَها تصيح بألم ووجهها اصطبغ بالدماء.. في حين هربت (بيسان) إلى غرفتها حالما رأت نتيجة وفداحة فِعلتها.

قلت بقلق:

- أعتقد أنكما تخشيان أن يحدثَ ما لا يُحمد عُقباه.. فقد ترتكب (بيسان) جريمة جديدة تؤدّي إلى تدخل الشرطة ومن ثم يتم أخذها إلى جرائم الأحداث.. مما قد يدمّر مستقبلها.

ردت الزوجة وهي تهز رأسها موافقة:

- بالضبط.. لقد أدركنا أن بقاء (بيسان) بيننا خطرٌ على الجميع.. فرغم أننا احتوينا كل المشاكل التي حدثت في السابق.. إلا أننا لا نعرف ما الذي ستفعلُه لاحقًا.. إنها ابنتي في النهاية.. وأنا أخشى كثيرا أن يأخذَها مني رجال الشرطة بقوة القانون.. فاقترحَ زوجي المجيء إلى هنا.. لعل الطب النفسي يشرح لنا ما يحدث ويجد لنا حلا.

قلت مستغربًا:

- إن ابنتكما تعاني ساديَّةً(31) غريبة لم أشهد مثلها بالنسبة إلى طفلة في هذه السن.. الغريب أيضا أنها لا تخشى عواقبَ أفعالها كما هو مفترض.. على كل حال..

يتوجَّب عليَّ اللقاءُ بها والتحدُّث إليها.. ومن ثم تحديد الخطوة التالية.. أخبراني.. كيف هي طبيعةُ حياتها في المدرسة؟!.. وهل تظنَّان أنها من الممكن أن تؤذيكما أو تؤذي شقيقتها الصغرى؟!.. اسمها (ليال) أليس كذلك؟!.

قالت الزوجة بشرود:

- نعم.. اسمها (ليال).. إنهما متقاربتان جدا.. وتقضيان وقتًا طويلًا مع بعضهما.. خاصة وأن حياة (بيسان) تخلو تقريبا من الأصدقاء رغبة منها.. فهي منعزلة عن الجميع.. حتى في المدرسة.. إذ لم نسمع عن أي مشاكل لها هناك.. سواء من المدرّسات أو زميلاتها اللاتي لا تربطها بهن أي علاقة على حد علمنا.. وقد طلبنا من (ليال) أكثر من مرة أن تفهم إن كانت (بيسان) تحتفظ بسر ما.. كونها شقيقتها وصديقتها الوحيدة وكاتمة أسرارها.. لكن لا شيء أبدا.. وبخصوص سؤالك عن مخاوفنا من أن تؤذينا.. فلا أخفيك أننا جميعا بدأنا نخشى التعرُّض للأذى على يديها بالفعل.. خصوصًا وأن (بيسان) لا تفعل ما تفعله بدافع الكراهية مثلا.. بل بسبب شعورها بالرغبة القوية والسعادة عند الإقدام على أعمال العنف تلك.. ثم الندم حالما ترى نتيجةَ أفعالها.. مع وعودها المستمرة التي لم تَصْدق أبدا -كما أخبرك زوجي- بأنها لن تُقدِم على تلك التصرفات مرة أخرى.

قلت بعد تفكير وأنا أهز رأسي نفيا:

- لا أظنُّ أنها ستؤذي أبويها.. ليس من مصلحتها ذلك.. أتحدَّث هنا عن حاجتها إليكما.. فلو أصابكما أي ضرر.. ستغدو يتيمةً لا يوجد من يعيلها ويهتم بها.. ولن يعرف أحد مصيرها بعد ذلك.. إنها في سن تسمح لها أن تدرك ذلك جيدا.. أما أن تؤذي شقيقتها الصغرى.. فهذا جائز.

سكتَ الزوجان وهما يفكّران بكلامي.. ثم قال الأب مغيرا دفة الحديث:

- بالمناسبة يا دكتور.. نحن لن نقفز لفكرة أن تكون ابنتنا متلبسة بالجن كما اقترح بعض الأقارب.. فلا يمكن إسقاط كل شيء على الجن.. وأنا لا ألجأ أبدا إلى الغيبيات إلا حين تزول كل الأسباب العلمية.

ابتسمت موافقا.. فكلامه يمثل وجهة نظري أيضا.. لكني لم أعقّب عليه.. إذ أنهيت اللقاء بطريقة لبقة عندما طلبت من الأبوين أن يأتيا بـ(بيسان) في زيارتهما القادمة.. حيث أخبرتُهما بمواعيد عملي في النوبات المسائية تحديدًا كونهما أرادا زيارة المستشفى في وقت هادئ بعيدا عن ساعات الذروة الصباحية.. فنهضا من مكانهما بعد ذلك وألقيا علي تحية سريعة قبل رحيلهما.

أما أنا.. فقد قضيتُ الأيام التالية برفقة صديقي الصدوق (الاكتئاب).. فأحاول تسلية نفسي بقراءة بعض الكتب.. واضعًا باعتباري أنَّني سأعيش أيامي كلها بهذه الطريقة

على الأرجح.. ولن يرافقني فيها سوى القصص الغريبة أو (الحالات النادرة) التي أنشرُها لكم بين الحين والآخر.

بعد أيام قليلة.. زارني الأبوين في نوبتي المسائية.. لم أتذكر كل تفاصيل قصتهما في البداية.. فأنعشا ذاكرتي ببعض المعلومات عما دار بيننا في المرة السابقة.. وأنا أنظر خلفهما إلى فتاة رقيقة الملامح نحيفة إلى درجة ما.. إنها (بيسان).. تحمل نظرات الأطفال البريئة التي يستحيل أن تصدق أنها من ارتكبت تلك الأفعال البشعة التي سمعتها من والديها.. لأرحب بهم جميعا من جديد.

ثم ابتسمت وأنا أطلب من (بيسان) الجلوس.. ومن الأبوين أن ينتظرا في الخارج ويُغلقا البابَ خلفهما.. فامتثلا لكلامي بامتعاض لم أكترث له.. لألتفتَ تجاهَها.. وأخبرها بهدوء أنها في مستشفى الطب النفسي بسبب قلق والديها الشديد عليها.. وسألتُها إن كانت تفهم مهمةَ الطبيب النفسي.. فأومأت برأسِها إيجابا بقلق.. لأدخل في الموضوع مباشرة وأسألها عن سبب ارتكابِها لتلك الأفعال المروّعة.. كما طلبت منها أن تحدّثني باسترسال عن حياتها واهتماماتِها ودراستها وكيف تقضي أوقات فراغها.. وهي تجيب وتجيب بتوتر ملحوظ ومستمر من دون أن أجد في كلامها ما يريب.. إنها تفكر وتتحدث كأيَّة طفلة في مثل عمرها.. ولا يوجد ما أثار تساؤلاتي في تعاملها المباشر معي.. مما أوقعني في حيرة شديدة تجاه ما سمعته من

الأبوين.. وما رأيته بنفسي من (بيسان).. صحيح أننا نتحدث عن فترة قصيرة قضيتها معها.. لكنها كافية لطبيب نفسي كي يقوم بتقييم المريض ومعرفة طبيعة شخصيته.. خاصة لو كان في هذه السن الصغيرة.

في النهاية.. طلبتُ منها الانتظارَ في الخارج.. وجئتُ بالأبوين.. لأُخبرَهما أن كل ما نستطيع فعله حاليا هو إشراك (بيسان) في أنشطة اجتماعية.. كالحملات التطوعيَّة مثلا.. وأن تقوم بإطعام الحيوانات المشرَّدة.. أو التصدق على الفقراء.. على أن يتم كل هذا تحت إشرافهما المباشر.. وعلى أمل أن تحدث تلك السلوكيات تغييرا إيجابيا وجذريا في شخصيتها بعد شهور أو ربما أكثر.. فمن العسير تحديد فترة زمنية للعلاج.. لينتهي اللقاء ظنًّا مني أنني وجدت الحل المناسب وأنني لن ألتقي بأفراد تلك الأسرة مرة أخرى.

لكنني كنت مخطئا للأسف.. فبعد أسابيع قليلة.. زارني الأبوين في الفترة الصباحيَّة برفقة (بيسان) متجاهلين كل حذرهما السابق من المجيء في فترة الذروة.. حيث بدا التوتر على الجميع.. ليشير الأب إلى (بيسان) بغضب وكأن الكيل قد طفح به.. ويقول بحدة:

- لقد اتصلتُ بصديقي في إدارة المستشفى.. فعرفتُ أنك متواجد اليوم في هذا الوقت.. لأننا لا نريد لقاء طبيب آخر نخبره بالقصة كاملة من البداية.. وقد جئنا إليك مسرعين

بعد ليلتين كارثيتين بالكاد غفت خلالها أعيننا.. دكتور.. (بيسان) ارتكبت جريمة مخيفة أخرى.. لقد تعلمتْ صناعة السُّم من أحد المواقع الإلكترونية.. تخيل هذا!!.. بل ووضعَت السُّم في كعكة عيد ميلاد شقيقتها (ليال).

انتفضت في مكاني بذعر وسألتُه:

- وماذا حدث بعد ذلك؟!.

ردت الزوجة بألم:

- كان هناك تسمُّم جماعي للمدعوين الذين تجاوز عددهم 8 أشخاص.. لحسن الحظ أنني وزوجي لم نكن قد أكلنا بعد.. فتداركنا الأمر سريعًا حين لاحظنا تقيُّؤ بعضهم.. وشحوب ملامح البعض الآخر.. وتمكَّنَّا من أخذ الجميع إلى المستشفى وإنقاذِهم.. ولحسن الحظ أيضا أن أحدًا لم يعرف ما جرى.. وظنُّوا أنها مجرَّد كعكة احتوَت على مادة فاسدة أو منتهية الصلاحيَّة.. وهذا ما جعلني أصفع (بيسان) لأول مرَّة في حياتي.. حين اعترفت بفِعلتها بعد أن حاصرتها بالأسئلة والشكوك.

قلت مذهولًا:

- هذا يعني أنها كانت تنوي قتلَكما وقتلَ شقيقتها أيضا!!.

ردت الزوجةُ بانفعال شديد:

- نعم يا دكتور.. وأنت الذي ظننتَ أنَّك أنهيتَ المشكلةَ

حين أخبرتنا المرةَ السابقةَ بضرورة إشراك (بيسان) في أعمال خيرية.. وأنها لن تضرَّ أبوَيها كما كنتَ تدَّعي!!.

قلت بحنق وقد فهمتُ مباشرة أنها تُلقي اللوم عليَّ:

- لم أطلب منكما إشراكها في أيَّة أنشطة خيريَّة هكذا من دون رقابة أو إشراف من أحد.. لقد أكَّدتُ لكما ضرورةَ مراقبتها الدائمة.. ثم إنَّ أمرًا كهذا سيستغرق بعضَ الوقت كي تتغير شخصيَّتُها.

سكتنا ولم يعلّقا على كلامي.. لكني سيطرتُ على نفسي بسرعة متفهمًا ما مر به الأبوان.. لأقول بجدية بالغة:

- لم أتوقع أن تسوء الأمور إلى هذا الحد.. لقد قفزَت ابنتكما إلى مستوى آخر من الشر والحقُّ يقال.. وربما إشراكها في الأنشطة الاجتماعية والخيرية ومراقبتها طوال الوقت ليس بالحل المناسب مع تلك المستجدات.. إذ لم أظن للحظة أنها لن تضع أي اعتبار لما قد يحدث لها لو فقدَت أبوَيها كما أكّدْت لكما في المرة السابقة.. عموما.. أرى من الأفضل تركَها في المستشفى بعض الوقت.. على الأقل ستكون هنا تحت الرقابة الدائمة.. ربما لن تقبلا بهذا الحل.. لكنه أفضل بكثير من أن تأتي إلى هنا مستقبلًا رغمًا عنكما وبأمر من القضاء.. وأقولها لكما صراحة.. لا أعرف كم من الوقت ستبقى ابنتكما عندنا.. فربما سيطول بقاؤها هنا.

طلبتُ من الأب إثباتَه وإثباتَ (بيسان) الشخصي.. ليتم تسجيل بياناتهما في سجل المستشفى.. كما ذكَّرت الأبوين أن يذهبا إلى البيت ويأتيا بحقيبة تحوي ثياب واحتياجاتِ ابنتهما كونها ستصبح نزيلةً في المستشفى.

وبعد رحيلهما.. التفتَتْ إليَّ (بيسان) وقالت بصوتها الطفولي:

- أريد أن أبقى هنا لأطول فترة ممكنة.. لا أريد العودة إلى البيت.. فلا أعرف أي جرم سأرتكب لو ظللت هناك.

قلت بهدوء:

- إنك خطرةٌ جدا يا (بيسان).. ولا يمكن التنبُّؤ بأفعالك.. أنت مصابة بساديَّة غريبة.. وتملكين شجاعةً متهورةً مجنونة لم أرَ مثلها في حياتي.. المشكلةُ لا أعرف كيف يبدأ علاجُك.. ربما علينا أن نقوم بعزلك أولا عن بقيَّة المرضى في غرفة لا تحوي أي أشياءَ قد تستخدمينها لتؤذيَ بها أحد الممرضات.. وسأضع لك جدولًا حافلًا أثناء وجودك في المستشفى.. كالقراءة والتلوين وإطعام الحيوانات الأليفة.. ومساعدة المرضى.. كل هذا تحت إشرافِنا وبرقابة صارمة.. وربَّما ستحتاجين بعضَ الأدوية النفسيَّة.. ستتضحُ الأمور أكثر وأنت تحت ملاحظتي المستمرة.

كنت أقول هذا الكلام بأبسط طريقة ممكنة لكي يستوعبَه

عقلُها الصغير -وإن بدأتُ أشكُّ أنها تحمل عقلَ طفل أصلًا- ثم رفعتُ سماعة الهاتف مباشرة وأنا أطلب من إحدى الممرضات أن تأخذ (بيسان) إلى مكان إقامتها الجديد في المستشفى.. و.. بقيتُ وحيدًا مستغربًا.. مصدوما من إقدام فتاة هزيلة رقيقة الملامح كهذه على جرائم مخيفة تقشعر لها أجساد الكبار قبل الصغار.. واثقا أنني لم أصادف أبدا حالة كهذه في حياتي.. فقد كنت أظنها مصابة بـ(الساديَّة).. لكن تصرفاتها توحي بما هو أكثر من ذلك.. إنها شخصية سايكوباثيّة(32).. وهذا قد يعني أنها تحاول خداعي الآن بتظاهرها بالضعف والحزن.

بعد حوالي شهر من تلك الحادثة لم يتوقف خلالها الأبوان عن زيارة (بيسان).. لم يلفت انتباهي أي شيء غير عادي في حياتها اليومية.. فقد كانت تمارسُ حياةً طبيعيةً هادئةً تقضي خلالها جُلَّ وقتها بقراءة قصص رومانسية لليافعين، وأخرى إنسانية اخترتُها لها بنفسي.. كل هذا بوجود دميتِها التي جاء بها والداها إليها.. حيث أخبراني أنها تحبُّ دميتَها هذه ولا تتخلَّى عنها أبدا.

المهم أنَّني طلبت إبقاءَها شهرًا آخر للمزيد من الرقابة ودراسة حالها.. علَّني أفهم طبيعتها وإن كان هناك ما تخفيه عنَّا.. كنت فقط ألمحُ نظرات الحزن على ملامحِها، وكأنها تحمل في صدرها همًّا ثقيلًا.. مما أثار تساؤلاتي كثيرا.. حتى شعرتُ للحظة وكأنها تعيش في مجتمع

كئيب للغاية.. وكأنها (ألِس) في بلاد (العجائز)!!.. ولو كان يُسمَح لي كطبيب نفسي إضافة دواء (الحضن) إلى قائمة الأدوية لفعلتُها واحتضنتُها.. ثم أعود لأتذكر طبيعة الشخصية السايكوباثيّة وأنها ربما تحاول كسب ثقتنا لتقوم بكارثة جديدة.

وهذا التناقض أصابني بحِيرة شديدة.. مما جعلني أفتح ملف (بيسان) محاولا استذكار كل التفاصيل.. وأقضي أياما طويلة -حتى أثناء وجودي في شقتي- محاولًا فهم أبعاد وخبايا هذه القصة الغريبة.. إلى أن انتبهت لبعض الحقائق التي غابت عني وحتى عن والديها.. فبدأ يتشكَّل في ذهني -وببطء شديد- استنتاج بالغ الغرابة يقلب حال تلك العائلة رأسا على عقب.. ويكشف لنا حقيقة مرعبة!!.. لكني سأحتاج الإجابة على بعض الأسئلة.. وهذا سيتطلب مواجهة (بيسان) ببعض الأمور لكي أتأكد من نظريتي.. فطلبتُ من الممرضات أن يأتين بها إلى مكتبي بعد مرور أكثر من شهر ونصف على وجودها في المستشفى.

وحين دخلَت مكتبي وجلسَت أمامي.. ظللت أفكر باستنتاجي وأنا أحدق بها.. حتى أثرتُ قلقَها بنظراتي تلك.. ثم.. وجَّهتُ لها سؤالًا صادمًا بدا وكأنها لم تتوقعه أبدا.. لكن الإجابة رأيتُها واضحة جليَّة على ملامحها التي ظهر عليها الارتباك والخوف.. حسنًا.. يبدو أن استنتاجي صحيح.. للخبرة دور هام في تلك الأمور التي ربما لا

يلاحظها طبيب نفسي مبتدئ.. أو ربما أنا أحمل قدرًا من الذكاء من دون أن أعلم.. لا يهم.. عليَّ فقط أن أُكمِل لأتأكَّد من نظريتي..

ما هو السؤال الذي وجَّهته لـ (بيسان) ؟!.. ستعرفون بعد قليل.

لم أكتفِ بذلك.. بل أمطرتها بأسئلة واتهامات أخرى وأخرى.. إلى درجة أنها تجمَّدت أمام صرامتي وقوة حجَّتي التي لم أراع فيها مشاعرها أو صغر سنها.. كل هذا من أجل غرض سأعلنُ عنه لاحقًا أيضا.. لتستسلم وتنهار باكية وتبدأ تخبرني بالحقيقة كاملة.. الحقيقة كما توقَّعتُها!!.. نعم.. ففي غياب البستاني.. تعود الشجرةُ إلى شكلها الطبيعي.. هذا ما جعل (بيسان) تعود إلى طبيعتِها أخيرا.. أعلم أن كل ما أقوله بمثابة الألغاز.. لكنَّ الإجابةَ ستتضح لكم قريبا.

في نفس اليوم.. اتصلتُ بالأب وطلبتُ منه أن يأتي بكل أفراد أسرتِه الصغيرةِ إلى المستشفى للضرورة القصوى.. هو وزوجته وابنتُهما (ليال) التي لم أقابلْها بعد.. وعبثًا حاولَ فهمَ ما أريده.. لكني كنتُ حازمًا صارمًا وأنا أخبره أنه سيعرف كل شيء حين أراهم.

بعد ساعة أو أكثر قليلا.. كان الأبوان يجلسان أمامي بحضور (ليال) التي بدَتْ بدورِها رقيقة هشة تشبه ملامحُها

(بيسان) إلى حد ما.. إلا أنها أصغر بسنتين كما علمنا.. فطرحتُ على أفراد الأسرة بعض الأسئلة العادية لكسرِ الجليد كما يقول الأجانب.. ثم وجَّهت بعض الأسئلة إلى (ليال).. فكانت تجيب بطريقة رقيقة تأسرُ القلوب كمعظم الأطفال.. حينها ألقيتُ بقنبلة لم يتوقَّعْها أحد.. إذ قلت بوضوح وثقة:

- لقد علمتُ أنَّكِ خلفَ كل الأحداثِ البشعة التي جرَت يا (ليال).. أنتِ التي قمتِ بارتكاب كل هذه الجرائم.. لكنَّك اتهمتِ (بيسان) بالمقابل.. وأجبرتِها كي تحمل جرائمِك على عاتقِها والاعتراف بأنها خلف كل شيء.. مما أبعدك تماما عن الصورة وجعل الأنظار تتجهُ إلى شقيقتِك المسكينة.

الغريب أن (ليال) لم تهتزَّ أبدا.. ولم تشعر بأي توتر.. لا يوجد أحد يتمُّ اتهامُه بارتكابِ مجموعة من الجرائم من دون أن يهتز قليلا.. فما بالكم بطفلة في الـ 10 من العمر؟!.. بالطبع كان كلامي غريبًا بالنسبة للأبوَين اللَّذَين استنكرا كل شيء وحاولا الاعتراض.. لكنني ابتلعتُ ريقي وأنا أطلب منهما السكوت.. ثم حاولتُ تمالك أعصابي وأكملتُ كلامي بنظرات صارمة وجَّهتُها كالسهام إلى (ليال) دون مراعاة لسنها الصغيرة:

- لقد ركلت خالتَك أثناء نومها.. على الأرجح كان هذا في الظلام.. فكان يستحيل عليها أن تميز بينك وبين

شقيقتِك.. خاصة وأنَّ فارقَ الطول بينكما ليس كبيرًا.. كما ارتكبتِ جريمةً أخرى بحق الخادمة.. وفي الظلام أيضا أثناء نومِها.. وبسبب صدمة الموقفَين والإصابات البليغة التي تعرَّضَتا لها.. كان يصعب عليهما معرفة الفاعل الحقيقي.. وحتى حادثة ضرب صديقتِك التي زارتك في البيت يوما.. فقد أخبرتْني (بيسان) بالتفاصيل حيث كنتن تلعبن في الظلام أيضا لعبة ما.. ما أريد قولَه هو أنَّ كل أفعالِك البشعة قمتِ بارتكابِها متستّرة في الظلام.. وهذه لا يمكن أن تكون صدفة.. ومع أوامرك وتهديدك لـ(بيسان) كي تعترف أنها هي التي ترتكب كل هذه الأفعال.. صدَّقوا كلامها بأنها المتهمة ولستِ أنتِ.. تبقى حادثة التسمُّم حين وضعتِ السمَّ الذي صنعتِه بنفسكِ في كعكة عيد الميلاد.. فقد فعلتِ ذلك بطريقة تسمحُ لك بالإفلاتِ واتهام شقيقتِك الكبرى التي باتت تخشاكِ كالموتِ ذاتِه.. وتنفذ كل ما تطلبينه منها كي تتَّق شرورك.. بعد أن أصبحَت تراكِ قويَّة مخيفةً يعجز حتى والداك أو الشرطةُ نفسُها عن إيقافك.. ولا ألومُها على ذلك.. فالكبار قد يشعرون بنفس الرهبة تجاه بعض المجرمين.. لهذا نجد مَن لا يشهد ضدَّ مجرم في بعض المحاكمات خوفًا من انتقامه.. رغم أن الشهادة ضده قد تسجنُه لسنوات.

ظلَّت (ليال) تستمع إليَّ بهدوء وصمت وكأن الأمرَ لا يعنيها.. وهذا غريبٌ جدا.. فلا يوجد أحد يمتلك أعصابا

بهذه القوة!!.. تذكّروا أيضا أننا نتحدَّث هنا عن طفلة في الـ 10 من العمر.. مما يزيد الأمور غرابةً.. لتقول الأم فجأة:

- أيُّ هُراء هذا يا دكتور؟!.. هل طلبتنا لتخبرنا بهذا الكلام الفارغ؟!.. إنَّ (ليال) مثال للهدوء والأدب والاستقامة.. المشكلة تخص (بيسان) و...

قاطعتُها سريعًا وأنا أقول:

- بالضبط.. هذه صفاتُ الشخصية السايكوباثيّة عزيزتي.. فهي تبدو للجميع طبيعيَّة للغاية، وأحيانا يعتبرُها البعضُ قدوةً لكل أقرانها.. لكنها في الواقع تختبئ خلف هذا القناع.

تراجعت الأم وانكمشت في مكانها والحيرة واضحة على ملامحها.. فأكملْت بحزم عالما أن كلامي سبب للأبوين ارتباكا شديدا:

- لقد لفتَ انتباهي أن (بيسان) -كما عرفتُ شخصيتها ودرستُها جيدا في المستشفى- لا تحمل أبدا صفات الشخصية السايكوباثيّة.. بل هي ضعيفة مهزوزة طوال الوقت.. وبصورة لا يمكن أن تخدع أي طبيب نفسي.. مما جعلني أفتح ملفها وأدرس حالتها بدقة أكثر.. متيقنا أن هناك بعض الأمور الغامضة في هذه القصة علي فهمها.. فقمت باسترجاع تفاصيل الجرائم التي يفترضُ أن (بيسان) ارتكبَتها.. لأنتبه أنها كلها تمت في الظلام.. أو أثناء

غياب الرقابة عليها.. كما في حادثة عيد ميلادها.. ثم طرحتُ تساؤلًا آخر.. لماذا لم ترتكب (بيسان) أي أفعال إجرامية في المدرسة بعيدا عن وجود (ليال) حيث الرقابة هناك أقل بسبب كثرة الطالبات؟!.

لم أمنح الأبوين الفرصة للإجابة.. بل أجبت أنا بثقة:

- السبب ببساطة أن (بيسان) و(ليال) في مرحلتين دراسيَّتَين مختلفتَين وفي مدرستَين مختلفتَين بحكم فارق السن بينهما.. فلا يمكن لـ(ليال) أن ترتكب أيَّة جريمة وتُسقطها على شقيقتها كما تفعل خارج أسوار المدرسة.

كنت أقول هذا الكلامَ وأنا أراقبُ ردودَ أفعال (ليال) التي ظلَّت تُثير استغرابي.. فهي ما تزال واقفةً بهدوء وثبات وكأن الأمر لا يعنيها.. لتقول الأم بنبرة الشك:

- يا دكتور.. لا يمكن أن يكون كلامُك صحيحا.. لا تنسَ حادثة التسمُّم في عيد الميلاد.. لقد تسمَّمَت (ليال) يومَها أيضا.. فهل كانت تنوي قتل نفسها؟!.

أشرتُ لها بإصبعي وأنا أخبرُها صراحةً أن هذه النقطة الوحيدة التي أعجز عن فهمها.. لتلتفتَ الأم بدورها إلى (ليال) وتسألها بقلق:

- هل ما يقوله الطبيب صحيح؟!.

هزَّت (ليال) رأسَها إيجابا بهدوء غريب للغاية أثارَ فضولنا

جميعا.. ليسود المكانَ صمتٌ طويلٌ من قوة المفاجأة، والأبوان يحدّقان في ابنتِهما ببلاهة.. ليستردَّ الأب رَبَاطَةَ جأشِه فجأة ويقول مستذكرًا:

- دكتور.. ألا تلاحظ أن (ليال) لا تشعر بالخوف أبدا من خطورة موقفِها؟!.. هذا يجعلُني أنتبه إلى حقيقة لا أعرفُ كيف لم تطرأ في ذهني طوال السنوات الماضية.. فـ(ليال) لا تخشى شيئا على الإطلاق.. لا الظلامَ ولا الحشراتِ ولا كل ما يُخيف الأطفال في مثل سنها.. أتذكَّر أنها جلسَت تشاهد فيلمًا ذات يوم في صالة البيت.. وكانت جميعُ لقطاته لا تناسبُ الأطفال بسبب مشاهد الرعب التي يحويها.. لكن (ليال) لم تهتزَّ لها أبدا.. حتى إنني انتبهتُ إلى ما تشاهده وغيَّرتُ القناةَ وسط اعتراضِها.. وهو مجرد موقف من مواقف كثيرة لم تلفت انتباهي مع زحمة الحياة.. نعم.. إنني أؤكّد لك أن ابنتي لم تشعر بالخوف يوما.

التفتَتْ إليه الأمُّ بعينَين متَّسعتَين وكأنها انتبهَت إلى هذه الحقيقة للتو.. أما أنا.. فقد قفز في ذهني أمر آخر.. لأقول باستغراب وقد تراجعت حدة صوتي:

- مهلًا.. مهلًا.. كلامك يعني أنني مخطئ في استنتاجي.. فالشخصية السايكوباثيّة لديها مخاوفُها ككل البشر.. أقلُّها الخوفُ من كشف أمرِها.. لكن (ليال) كسرَت هذه القاعدة.. ولا يمكن أن يكون هذا طبيعيًّا.. انظرا إليها الآن بعد أن كشفْنا أمرَها.. إنها تقفُ أمامَنا

بساطة ولا تفكّر بعواقِبِ أفعالها.. وهذا يناقض الطبيعةَ البشرية.

نهضتُ من مكاني ومشيتُ تجاه (ليال) إلى أن اقتربتُ منها كثيرا.. لأسألها بهدوء:

- كيف يحدثُ كل هذا من دون أن تشعري بالخوف على مصيرِك جرَّاء أفعالِكِ؟!.. فقد ارتكبتِ جرائمَ لا يتغافلُ عنها القانون.

ردت بابتسامة بريئة غير مصطنعة:

- أنا لم أشعر بالخوف في حياتي كلها.. ولا أعرف معنى أن يخافَ الإنسان.

كانت إجابتُها كافيةً كي تتعلّق أنظارُنا بها لدقائقَ ونحن نعجز عن الرد.. كيف يمكن لإنسان ألا تتملّكُه مشاعر الخوف من أي شيء؟!.. لكن.. لحُسن الحظ أنني على قدر كبير جدا من الاطلاع.. ولستُ فقط طبيبًا نفسيًّا.. وهذا ما جعلني أوجّه نظري إلى سقف الغرفة وأنا أطلب الهدوء من الجميع.. إنَّني أحاول أن أتذكّر شيئا هامًّا.. ثم.. قلت بعد ذلك الصمتِ الطويل بكلمات بطيئة وانبهار واضح:

- هذا لا يُصدَّق.. لم أظن أنَّني سأشهد يوما أمرًا كهذا.. أتذكر أنني قرأتُ منذ سنوات قليلة عن حالة نادرة جدا لسيدة لا تعرفُ الخوفَ إطلاقًا لأسباب طبية متعلّقة بخلل

في دماغها.. هذا ما أكّده الأطباء بعد فحصِها(33).. فهل أنا أشهدُ حالةً ثانيةً هنا؟!.. مع الفارق أن (ليال) تعاني اضطرابًا نفسيًّا شديد الخطورة.. السايكوباثيّة.. فلَكُم أن تتخيَّلوا خطر شخص يُعاني هذا الاضطرابَ النفسي ولا يشعر بالخوف من أي شيء بنفس الوقت!!!.. لست متأكّدًا من كلامي لكن كل ما أشهده يؤكد ذلك.. عليَّ البحثُ والتحقُّق أكثر.. فنحن لا نشهدُ حالة طبية كهذه كل يوم.. ستخضع ابنتكما لبعض الفحوصات للتأكد من كلامي.. وبعدها.. وبعدها...

لم أكمل عبارتي لأنني أجهل ما يجب فعله تجاه حالة كهذه.. فقلت موضحا:

- إنَّ حالتَها استثنائية يصعبُ الحديثُ عنها وتوقُّع مصيرها من الآن.. لذا يجب أن تكون تحت الرقابة الدائمة.. ولو كبرت في السن.. ستكون أشدَّ خطورةً.. إلا إذا عالجنا اضطرابَها السايكوباثي.. ولا أعلم إن كان يمكنُنا ذلك في ظل حالتها الغريبة.. لكني سأبذل قصارى جهدي.

وجهت أنظاري بعد ذلك إلى (ليال) لأقول:

- هذا ما يُخيف (بيسان) منك.. فأنتِ تبدين لها شخصًا خارقا لا يخشى شيئا على الإطلاق.. لهذا تمتثل لك ولا تُمانع أن تُعاقَب على أفعال ارتكبتها أنتِ.. فقط اتقاء لانتقامك.. ولهذا أيضا تتمنَّى البقاء بعيدا عنك لأطول فترة

ممكنة كما تبيَّن لي طوال فترة وجودِها في المستشفى.. لقد اعترفَتْ لي بكل شيء.. ولم تفعل ذلك إلا حين شعرَت بالأمان معي وأنا أتحدَّثُ معها بقوَّة وصرامة.. مما منحها الإحساس أنني أملكُ السلطةَ الكاملة لحمايتِها.. فالشعور بالأمان يمنح المرءَ القوةَ ويُضعف عدوه أمامه.. وأعتقد أنني الآن أعرف سبب تسميمِ نفسك في حفلة عيد الميلاد.. فعلتِ ذلك على أمل أن تجربي الخوف.. حتى وإن أدَّى إلى موتك.. أليس كذلك؟!.

هزت (ليال) رأسَها إيجابا بثبات وهي تقول:

- لأنني أسمعُ عن الخوف وأراه في ملامح الناس بين الحين والآخر.. كل الناس.. سواء في التلفاز أو في محيط حياتي نفسها.. لقد رأيت الخوفَ في ملامح أقاربي وزميلاتي في المدرسة.. وفي ملامح (بيسان) ووالديَّ.. فلماذا لا أشعرُ به؟!.. هذا ما جعلَني أقوم بدس السُّم في كعكة عيد الميلاد محاولة قتل الجميع لاستمتاعي بذلك.. مع تعريض حياتي نفسها للخطر علَّني أشعر بالخوف.. لكني لم أشعر به رغم كل هذا.

أكرر أن علينا ألا ننسى أن سن (ليال) لا تتجاوز 10 أعوام.. وقد كانت تتحدث مستخدمةً مصطلحات طفوليَّة عديدة.. لكني أعدتُ صياغةَ كلامها لإيصال الصورة إليكم بأفضل طريقة ممكنة.

طلبت من الأبوين بحزم أن يأخذا (بيسان) إلى البيت مع إغراقِها بكل وسائل الرعاية والحنان بعد ما عانَته من شقيقتِها.. وأن يتركا (ليال) بالمقابل في المستشفى.. حيث سنُخضِعُها لفحوصات عديدة.. ونُبقيها تحت رعاية مشدَّدة.. أما بخصوص مدرستِها ومستقبلِها.. فلحسن الحظ أن هذه القصةَ جرت أحداثُها في بداية فصل الصيف.. لكن تظل هناك مخاطبات كثيرة يجب أن أجريَها مع المسؤولين لأعرف كيف سيمكنُنا التعامل مع هذه الطفلة.. خاصة وأنني لا أضمنُ علاج شخصيَّتها السايكوباثيّة وهي تعاني -في نفس الوقت- هذا المرض النادرَ كما تؤكد أحداث القصة.

وبالطبع لم يكن ما حدثَ سهلًا أبدا على الأبوين.. فقد قلبْت المفاهيمَ رأسًا على عقب في ساعة واحدة.. مما سبب لهما ارتباكًا هائلًا تطلَّب ساعةً أخرى كي يستوعبا حقيقة ما كان يجري حولهما.. حيث قاما بطرح أسئلة وملاحظات كثيرة عن الحالة الصحية لابنتهما وعن مستقبلها.. وأنا أجيبُهما برحابة صدر.. وأؤكد أنَّني سأفعل كل ما بوسعي لعلاجها.. حتى لو تطلَّب ذلك توصيةً للعلاج في الخارج إن كان هناك علاجٌ لحالة كهذه أصلًا.

أستطيع أن أقول أنني طويتُ صفحة هذه القصة.. بعد أن كشفتُ ملابساتِها.. لكني وفي نفس الوقت.. لا أستطيعُ أن أجزم بما سيكون عليه حال (ليال).. إننا نتحدَّثُ عن

حالة طبية لم يدرسْها العلمُ جيدا ولم يقل الكثيرَ بشأنِها..
حالة عن إنسان لا يعرف الخوف.. ومصاب باضطراب الشخصية السايكوباثيّة في نفس الوقت.. آملًا أن أتمكّن من إنهاء الرعب والتوتر الذي عاشتْه تلك الأسرة الصغيرة طوال الفترة الماضية.

خاتمة

ها قد وصلنا إلى نهاية هذا الجزء من مذكراتي.. تلك المذكرات التي جعلتنا نخوض رحلةً طويلة في حياة الإنسان.. ونتذكَّر أنه كائن غامض غريب الأطوار يمتلئ بالكنوز.. لكنه يمتلئ أيضا بالمخاوف والعُقَدِ المتراكمة التي تحرمُه من رؤية كنوزه والاستفادة منها.. كما لاحظنا أن هناك شعورَين وحيدَين يتحكَّمان في حياتنا.. الحب والخوف.. وكل المشاعر الأخرى مشتقة منهما لو فكرنا بالأمر جيدا.

ولو طبَّقنا ذلك على هذا الجزء من السلسلة.. سنجد الخوف في أفظع صوره في قصة (حادث دهْس) التي آلمتني شخصيًّا إلى درجة كبيرة.. حيث عاشت تلك السيدة ساعات سوداء انتهت بمفاجأة مروّعة أسوأ مما كانت تخشاه بكثير.

أما في قصة (كوابيس تتجسد) فوجدنا مشاعرَ الحب حاضرة كذلك حين قامت الصيدلانية بالانتقام من قاتل طفلتِها.. وكذلك لمسنا مشاعر الخوف في تصرفات (أنور) الذي طاردتْهُ مخاوفُه حتى في كوابيسه بسبب فعلته الشنعاء.. إلى أن قتلتْه مخاوفُه نفسها بسبب عقار الهلوسة كما علمنا.

وفي قصة (الدُّمية) رأينا كيف أعمى الخوفُ (وسن)

و(مرام) عن أن تنتبها إلى الحقيقة.. بأنهما تعرَّضتا لخدعة متقنة من شاب استغلَّ مخاوفَهما من أجل تحقيق أطماعِه في عمليَّة سرقة كادت أن تكونَ متقنةً.. قبل أن أكشف لهما حقيقة ما جرى.. وقد تبيَّنَ أنني محقٌّ في استنتاجي كما علمتُ من (مرام) في نهاية القصة.

أما في قصة (سر الشاب الذي أحببته).. فقد كان الحبُّ حاضرًا في البداية.. ليأتي الخوف ويسيطر على الملامح الباقية من القصة حين خسرَتْ (نتال) كل شيء فجأة.. وباتت مكروهةً وملامة من جميع أفراد عائلتها.. وهي التي لم تفعل شيئا أصلًا سوى أنها شهدت حادثةً غريبةً لا يصدقها عقل.. هذا إن كانت محقَّة في قصَّتها بالطبع.. فما زالت ترادوني بعض الشكوك كحال أي إنسان يسمع قصة غريبة كهذه.

وأخيرا لدينا قصة (رعب في بيت الأسرة) حيث تمكَّن الخوفُ من (بيسان) وجعلَها تستسلمُ لشقيقتِها (ليال).. وتقبل أن يتمَّ إلقاءُ اللوم عليها على أن تُغضبَ شقيقتَها كي تتجنب انتقامها.. في حين عرفنا شخصيَّة (ليال) السايكوباثيّة التي تحبُّ كل أعمال العنف.. إلَّا أنها وبسبب خلل في عقلِها كما ذكرنا في القصة.. اتَّضح أنَّها لا تعرف مشاعرَ الخوف أصلًا.. وهي حالة استثنائية تؤكّد القاعدةَ التي ذكرتُها.. أن ما يحرك الإنسان هو الحب والخوف فقط.

ختامًا.. آمل أن يكون هذا الجزءُ قد نال إعجابكم.. وربما يتساءل بعضكم عنّي وعما سأفعلُه بعد ذلك.. أو لنطرح السؤال بطريقة أفضل: أين يذهب البطل بعد انتهاء قصته؟!.. على اعتبار أنني بطل هذه السلسلة كوني عشتُ أحداثَها وأسردُها لكم بنفسي.. والإجابة على السؤال لن تختلفَ عما تقرؤونه في مذكراتي.. فحياتي لا تتجاوزُ حدود المستشفى وشقتي.. وعالَمي الذاتي الثري الذي أحبُّه كثيرا.

وهذا يعني أن هناك أجزاءً أخرى قادمةً.. فعملي يشترط معرفةَ أسرار الناس كي أتمكَّن من عِلاجِهم.. مما يرجّح وجهة نظري أن الطب النفسي أعظم إنجاز بشري.. لأن آلام الجسد لا تساوي أي شيء أمام خلل عقلي بسيط يتسببُ به الاكتئاب أو الوسواس القهري.. إلخ من الأمراض النفسية التي قد تدمّر حياة المرء.

على أمل أن نلتقيَ في أجزاء جديدة قادمة.. وقصص أخرى وأخرى من أسرار الناس التي أجمعُها تحت ذلك المسمَّى الغامض.. حالات نادرة.

الدكتور (....)

للتواصل مع المؤلف

Email : kuwaiti27@hotmail.com

Twitter : @Abdul_Alrifaee

Instagram : abdul_alrifaee

Snapchat : alrifaee

TikTok : @abdul_alrifaee

---

(1) حقيقة.. واللفظة باللغة الانجليزية (Nyctophilia).

(2) حقيقة.. فقد كان الرقم 7 -وما زال- يثير خيال الباحثين ويترك لديهم تساؤلات كثيرة.. إذ نجد القرآن الكريم يتحدث عن السموات السبع.. والأراضي السبع.. والسنابل السبع.. والبقرات السبع.. ونجد المسلمين يحتفلون بولادة الطفل في اليوم السابع.. مع أمور كثيرة تتعلق بالمسائل الفقهية.. مثل الشروط السبعة الواجبة لصلاة الجمعة.. والسبعة الذين لا تُقبل صلاتهم.. والسبع حركات التي تتم في الركعة الواحدة.. والوارثات من النساء وهن سبع.. والمعاصي التي تخرج من أعضاء الجسم السبعة.. والشواهد السبعة على معصية الإنسان.. وهناك أيضا دركات النار السبعة.. والسبع الموبقات.. في حين نجد في حلم فرعون الذي فسّره سيدنا (يوسف) -عليه السلام- أن عدد البقرات والسنابل سبعة.. بل أن الفقه الإسلامي بأكمله قائم على سبعة أقسام (العبادات، المعاملات، الأحوال الشخصية، الأحكام السلطانية= أو= السياسة

الشرعية، فقه العقوبات، فقه السِّيَر، فقه الآداب والأخلاق).. أما في المسيحية فنجد الأسرار السبعة.. والخطايا السبع.. ويتحدث الإنجيل كذلك عن يوم القيامة حين يفتح الله -سبحانه وتعالى- كتاب الأقدار ويفضُّ الأختام السبعة.. فينفخ سبعة من الملائكة في سبعة أبواق.. وتحدث سبع كوارث ينتهي بها العالَم.. في حين تتحدث اليهودية عن الشمعدان السُّباعي.. والطبقة السابعة من شجرة الحياة.. وأمور كثيرة أخرى متعلقة بالمعتقد اليهودي.. أما في أمور الدنيا فإن الإنسان نفسه له سبعة أطوار بعد ولادته (الرضاعة، الطفولة، الصبا، الشباب، الكهولة، الشيخوخة، الهرم).. ويكتمل نمو الإنسان في بطن أمه في الشهر السابع كذلك.. وهناك أيضا ألوان قوس قزح السبعة.. وأيام الأسبوع السبعة.. ولعبة الكاراتيه الشهيرة والتي تحوي سبعة أحزمة بألوان مختلفة.. والسلم الموسيقي نجده بسبع نغمات.. وأوتار القيثارة سبعة.. وأنواع الحجارة الكريمة سبعة.. ولدينا أيضا الفنون السبعة الحرة (النحو، المنطق، الخطابة، الهندسة، الحساب، الفلك، والموسيقى).. والمزيد والمزيد من تكرار الرقم 7 في الحضارات والأديان.. من دون أي تفسير واضح.

(3) رغم تطرق المؤلف لهذا الأمر في مناسبات سابقة.. إلا أننا نعيدُ الشرح للتذكير.. فالـ(باراسيكولوجي) (Parapsychology) أو (علم نفس الخوارق) أو (ما وراء علم النفس) مصطلحات شهيرة تحمل نفس المعنى.. وتطلق على الدراسات العلمية لظواهر بشرية خارقة عددها كبير ويصعب حصره.. كالتخاطر العقلي والتحريك عن بعد والرؤى.. إلخ من الأفعال التي تتم بواسطة العقل فقط ودون اللجوء إلى الحواس الـ 5 المعروفة.. ويتألف مصطلح الـ(باراسيكولوجي) من شقين (Para) ويعني (قرب) أو (جانب) أو (ما وراء).. و(سيكولوجي) (Psychology) ويعني علم النفس.. وقد أسس الباحث (جوزيف راين) (Joseph Rhine) أول مختبر للـ(باراسيكولوجي) في أواخر عشرينيات القرن الماضي في

جامعة (دووك) بولاية (كارولاينا الشمالية) في (الولايات المتحدة الأمريكية).. علما بأن الـ(باراسيكولوجي) ما زال يثير الكثيرَ من الجدل.. بل ويعتبره عدد كبير من العلماء من العلوم الزائفة التي لا وجود لها أصلًا.. إلا أن هناك عدد لا بأس به من العلماء أيضا من يعترفون بوجوده، وأقاموا المعاهد والجمعيَّات لدراسته.. لكن جميع تلك المعاهد لم تؤكّد أي شيء حتى هذه اللحظة.

(4) (أزيِد الرصاص) أو Pb(N3)2 هي من أكثر المواد القابلة للانفجار في العالم.. إلى درجة أنها من الممكن أن تنفجر وحدَها دون مؤثرات.. بل إنها انفجرَتْ بالفعل حين وضعَها الخبراء في غرفة مظلمة هادئة لا حركةَ فيها إطلاقاً.. لذا يتم التعاملُ معها بحذر شديد جدا.

(5) الـ(متلازمة) (Syndrome) هي مجموعة من الأعراض المتزامنة التي تصف بمجموعها مرضًا معينًا.. ولفظتها الإنجليزية مشتقة من الكلمة اليونانية (Sundromos) والتي تعني (التزامن).. أما (متلازمة توريت) (Tourette Syndrome) فهي عبارة عن خلل عصبي وراثي يظهر منذ الطفولة المبكرة.. أو في فترة المراهقة على أبعد تقدير.. وتظهرُ أعراضُه على شكل حركات متكرّرة عصبية لا إرادية.. مثل إمض العين، والسعال، وتطهير الحلق، وحركات في ملامح الوجه، يصحبُها متلازماتٌ صوتية.. وكأنَّ المصاب يُعاني مسًّا من الجن.. ويحمل المرض اسم (جورج توريت) (Georges Tourette) (1857-1904) الذي اكتشفه عام 1885 ميلادية.. ومن الممكن علاجُه عادة بعملية جراحية في الدماغ.

(6) توصف الليلة التي تمتلئ بالسهر والقلق والخوف بـ(الليلة النابغيَّة).. وذلك نسبةً إلى الشاعر الجاهلي (النابغة الذبياني) الذي كان قريبًا جدا من الملك (النعمان بن المنذر).. حيث أجزل

الأخيرُ عطاياه وأحسنَ معاملتَه ومنحَه ما لم يمنحه لأي شاعر من قبل.. وقد رُوِيَ عن (النابغة الذبياني) أنه صادفَ زوجةَ الملك (النعمان بن المنذر) ذاتَ مرة أثناء سقوط النَّصِيف -أي (المنديل)- من على رأسِها.. وبحسب القصص المنقولة فإن الملكَ طلب منه وصفَ تلك الحادثة بأبيات من شعره.. فنظمَ (النابغة الذبياني) قصيدة بعنوان (المتجردة) تغزَّل خلالها بجميع مفاتِن الزوجة.. المكشوف منها والمستور.. مما أثار الشكَّ والغضبَ في قلب الملك.. فهرب (النابغة الذبياني).. وبات بسبب ذلك مهددًا في حياته.. مما جعله يقضي ليال سوداء خوفًا على مصيره.. حتى بات يُضرَبُ بها المثل.. إلى أن عفا عنه الملك فيما بعدُ ومنحَه الأمان وأعادَه إلى بلاطه، لتعود علاقتُهما قويَّةً كما كانت.. وقد توفّي (النابغة الذبياني) عام 605 ميلادية.. وقبل نزول الوحي وظهور الإسلام بحوالي 5 سنوات فقط.. ولا تذكرُ لنا المراجع سببَ وفاته.

(7) كلمة (قُوطي) أو (Gothic) باللغة الإنجليزية تعني حرفيًا (جرماني).. وهو طراز معماري شهير، وُجد في غرب أوروبا في الفترة من القرن الـ 12 وحتى القرن الـ 16 الميلادي.. إذ يمتاز بالأقواس المدببة والأعمدة الطويلة والقباب والأسقف المرتفعة والنوافذ الضخمة.. حيث تم بناء العديد من الكنائس القديمة والقلاع بهذه الطريقة.. وقد تم استخدام تلك الكلمة لأول مرة في الرواية الرائعة (قلعة أوترانتو) (The Castle of Otranto) عام 1760 ميلادية للكاتب (هوراس والبول) (Horace Walpole).. فقد كانت القصة مرعبةً وكئيبةً جدا كما وصفَها كل من قرأها.. ويعتبرُها النقادُ الميلادَ الحقيقيَّ لمفهوم (الرعب القُوطي) الذي ارتبطت قصصُه بالبيوت القديمة والقِلاع والنفوس المعقَّدة.

(8) (ادغار آلان بو) (Edgar Allan Poe) (1809-1849) مؤلف وشاعر وناقد أمريكي.. ويُعتقد أنه رائد أدب القصة القصيرة

ورائد الأدب البوليسي، ومن أهم كتّاب أدب الرعب في العالم..
حيث اشتهرت معظم أعماله بالعمق والسوداوية الشديدة.. كما
يعتبر من أوائل الأدباء الذين حاولوا كسب لقمة العيش من خلال
الكتابة وحدَها.. وهذا ما جعل حياته صعبةً للغاية ماديًّا ومهنيًّا..
وقد لازمه سوء= =الحظ منذ طفولته.. بعد أن تخلّى عنه والده..
ثم توفّيت والدتُه وهو ما زال في الثالثة من العمر.. ليصبح يتيمًا
في سن مبكرة.. فقامت إحدى العائلات باحتضانه لسنوات قبل أن
تشبَّ بينهما الخلافات ويرحل عنها.. وبسبب الفقر الذي لازمَه..
أدمن المشروبات الكحوليَّة.. وانعزل عن المجتمع ليجلس دوما في
غرفة معتمة مع زجاجة الخمر.. مما منحَه سُمعةً سيئةً في المجتمع
الأمريكي المحافظ آنذاك.. وقد تزوج قريبتَه (فيرجينيا إليسا كليم)
(Virginia Eliza Clemm) بعد أن أحبَّها بجنون.. إلا أنها أُصيبت
بمرض (السل) لتتوفى عام 1847 ميلادية.. الأمر الذي دمَّر حالتَه
النفسية.. وسبَّب له نوبات اكتئاب حادة جعلتْه يقع فريسةً للحزن
واليأس والإعياء الجسدي.. ولم يبقَ على قيد الحياة طويلًا بعد
ذلك.. فقد توفّي بعد سنتين فقط من وفاة زوجته.. إذ عثروا عليه
مخمورًا وبحالة نفسية وصحية سيئة جدا في إحدى شوارع مدينة
(بالتيمور).. وقد تم أخذه إلى المستشفى لإنقاذه.. إلا أنه مات
بعدها بأيام قليلة.

(9) (قناع الموت الأحمر) (The Masque of the Red Death)
واحدة من أروع القصص القصيرة التي كتبها (ادغار آلان بو) وربما
أكثرُها سوداويَّة.. حيث قام بنشرها عام 1842 ميلادية، وتحدث فيها
عن وباء (الموت الأحمر) القاتل الذي أصاب مدينةً ما.. وهو وباء
خيالي يتسبب بنزيف حاد من كل خلايا المريض ومن دون توقف..
ليموت في غضون نصف الساعة فقط.. مما تسبب بحالة من الذعر
العام جعلت الحاكمَ يجمع الأثرياءَ والنبلاءَ ومواليه في قصره ويُقفل
كل الأبواب.. بل ويصهرُ أقفالَها كي يعزل نفسه عن الوباء.. أي

تركَ شعبَه يتألم ويموت ليعيشَ هو آمنًا مع حاشيته في قصره ينعمون بحياة الرغد.. ثم أعدَّ عُدَّته ذات يوم لإقامة حفلة تنكريَّة بعيدا عن أجواء الموت التي تحيط بمدينتِه.. لكن ضيفًا دخيلًا يرتدي الكفنَ ظهر بين حاشيته فجأة أثناء الحفلة.. مما أثار حفيظةَ وذُعْرَ الحاكم الذي سأله عن هويته.. إلا أنَّ الضيف ظلَّ جامدًا واقفًا بطريقة أخافت الجميع.. فطاردَه الحاكم بسيفه ليقتله.. إلى أن اكتشف أن الضيفَ الغامضَ هذا ليس سوى وباء (الموت الأحمر) ذاته متجسّدًا في هيئة بشر.. حيث استطاع اقتحامَ القلعة بطريقة ما.. ليتساقط الحاكمُ وضيوفُه واحدًا تلو الآخر، والدماءُ تنزف منهم حتى الموت.

(10) حقيقة.. ويختلف محتوى (الأحلام المتكررة) (Recurring Dreams) من شخص لآخر.. بحسب تجاربه وخبراته في الحياة.. لكنها غالبا ما تكون مزعجةً وكابوسية.. علما بأن (الأحلام المتكررة) تعدُّ نوعًا واحدًا من العديد من أنواع الأحلام الأخرى التي يصعب حصرُها.. فهناك الأحلام العادية التي نراها في منامنا حول تجاربنا في الحياة والأشخاص الذين نعرفهم.. وهناك (أحلام اليقظة) (Day Dreams) التي نلجأ إليها أثناء استيقاظنا لنهربَ من واقعنا.. كأن تتخيل نفسك وقد أصبحتَ ثريًّا فجأة.. وكيف ستتعامل مع الثروة.. أو أن تعود إلى الماضي لتصحيح خطأ ما.. إلخ.. وهناك أيضا (الأحلام المتجلية) (Lucid Dreams) حين يحلم الإنسان لكن عقلَه الواعي يظل مستيقظًا ويعلم أنه يعيش حلما في تلك اللحظة.. وهناك أحلام (الاستيقاظ الخاطئ) (False Awakening Dreams) حيث يظن الإنسان أنه استيقظ من نومه.. لكنه ما زال يعيش الحلمَ في واقع الأمر.. ولا ننسى بالطبع (الكوابيس) (Nightmares) والتي غالبا ما تكون أسوأ الأحلام وأكثرها إزعاجًا.. في حين توجد أنواعٌ أخرى من الأحلام التي تنتمي إلى عالم الماورائيَّات ولا يعلم أحدٌ مدى حقيقتها.. كـ(الرؤى) التي تتحقق على أرض الواقع!!.. أو (أحلام التخاطر) (Telepathic Dreams) حين يحلم أحدهم بأحداث

تجري في مكان آخر.. ويتضح أن ما حلم به كان يحدث بالفعل أثناء نومه.. وهناك أيضا (أحلام الزيارة) (Visitation Dreams) والتي تكون غالبا زيارة من شخص عزيز مات منذ مدة ويراه قريبُه في أحلامه.. كما يوجد ما يطلق عليه اسم (الأحلام المتقاسمة) (Shared Dreams) حين يحلم شخصانِ أو أكثر بنفس الحلم وفي نفس وقت نومِهما.. وغيرها الكثير من أنواع الأحلام الأخرى.. فعالَم الأحلام معقَّد جدا.. يرى البعض أنه ليس سوى انعكاس لا معنى له لتجاربنا وضغوطات حياتنا.. في حين يراه آخرون يحمل رسائلَ هامة لا نعرف كيفية قراءتها بعد.

(11) هذا ما يحدث عادة حين يتناول الإنسان مضادات الاكتئاب ومثبتات المزاج.

(12) المواد المهلوسة (Hallucinogens) هي قائمة ضخمة تمتد من المواد الكحولية إلى المخدرات.. وهي مزيج من المركبات الكيميائية -طبيعية وصناعية- تسبب لمتعاطيها اضطرابات شديدةً في الإدراك.. وتأثيرات مدمّرة على الجهاز العصبي.. أبسطُها الإحساس بأشياءَ لا وجود لها.. وأحيانا كثيرة تقود المتعاطي إلى الانتحار.. ومن لا يصل به الأمر إلى الانتحار يعيش مشتّتًا عاجزًا عن التركيز في أي شيء سوى الحصول على الجرعة القادمة.. علما بأن المواد المهلوسة تملك تاريخًا حافلاً يمتدُّ لآلاف السنين.. فقد استخدمتها بعض الحضاراتُ القديمة لأسباب دينية ظنا أنها تساعدهم على الاتصال بالآلهة.. إذ كانوا يستخرجونها من الأعشاب والنباتات وبعض أنواع الفطر. وربما أبرز وأغرب المواد التي تسبب الهلوسة:

1) (DMT) وهو رمز مختصر للمركب (Dimethyltryptamine).. فأغلب متعاطي هذا النوع من المخدرات يمرُّون بهلوسات شديدة ويشعرون أنهم يعيشون في عالَم غريب من المشاهد والأحداث التي تستمر لسنوات طويلة.. رغم أن أثر المخدّر يستمر لنصف الساعة فقط

في عالَمنا الحقيقي.. وقد ربط البعض تلك المادة بالروح.. كونها تُفرز تلقائيًّا في دماغ الإنسان أثناء لحظات الاقتراب من الموت في الحوادث المميتة أو عند توقف القلب مؤقتًا.. وأثناء الولادة والأحلام كذلك.. لهذا أطلقوا على المخدر اسم (جُزيء الروح) (The Spirit Molecule).

2) (Lysergic Acid Diethylamide) (LSD) ويعتبر من أقوى المخدرات.. إذ تتسبب جرعة صغيرة منه برحلة هلوسة قد تستمرُّ إلى حوالي 15 ساعة.. وهو أول عقار يتمُّ تصنيعه في المختبرات عام 1938 لأسباب طبية.. لكن تم حظرُه فيما بعد نتيجةَ التأثير الغريب الذي يصاحب متعاطيه.. فهو يتسبب بتضارب الحواس ببعضها.. كأن يشعرَ المتعاطي بأنَّه يرى الموسيقى ويسمع الألوان مثلا.. أو أن يرى رسومًا وأشكالًا متحركةً على الجدران.. وتختلط عليه الأزمان والأماكن كذلك.. كأن يشعر بأنه سافر إلى الماضي أو المستقبل.. إلخ.=

=3) (DXM) اختصارًا لـ(Dextromethorphan) وهي مادة جرَّبناها جميعنا على الأرجح.. كونها موجودة في أدوية الكحَّة التي تباع في الصيدليَّات.. فهي تحتوي على مواد محفزة بشدة للنعاس.. وهذا ما جعل الكثيرَ من أدوية الكحَّة تختفي من الصيدليات، رغم فعاليتها في العلاج.. بعد أن سحبتها الكثير من الحكومات بسبب سوء الاستعمال.. إذ كان البعض يدمنُ استخدامَها كونها تباع بسهولة وبأسعار رخيصة ومن دون وصفات طبية.. ليصل الأمر بالمتعاطي إلى شرب علبة كاملة بجرعة وحدة.. فيشعر بالانفصال التام عن العالم والغربة وتبدد الواقع وتجمُّد المشاعر.. وأن أفعاله باتت كلها وكأنها آلية.. أو كما يطلق عليه في علم النفس (تبدد الشخصية) أو (اختلال الأنية) (Depersonalization).. لكنه لا يشعر بأنه أصبح شخصًا آخر كما قد يظنُّ البعض.. أي أن الحالة تختلفُ عن (اضطراب ازدواج الشخصية) (Double Personality Disorder) الشهير الذي تمَّ التطرُّق له في الجزء الأول من هذه السلسلة.

4) مخدر (فلاكا) (Flakka Drug)

(Alpha-Pyrrolidinopentiophenone) وهذا المخدر يستخرج من

النباتات.. وتعاطيه يمنح شعورًا عاليًا جدا بالنشوة وجنون العظمة.. وهو ما يجعل المتعاطي يتحول تلقائيًا إلى مخلوق عدائي يؤذي من حوله.. أو يؤذي نفسه.. وربما يقوم بتصرفات انتحارية.. إذ يتسبب بتعرض خلايا المخ إلى التآكل والإصابة بأورام خطيرة.. وهناك حادثة شهيرة بالغة الغرابة في (مصر).. حيث قام شخص أفريقيٌّ بالهجوم على طفل والتهمَ جزءًا من عُنقه!!.. حتى إن البعض شبهها بهجوم الزومبي.. لكن بعد القبض على الشخص الأفريقي.. اتضح أنه تعاطى مخدر (فلاكا).. لهذا يطلق عليه اسم (المخدر الزومبي).

5) حبوب الصراصير (باركينول) (Parkinol) وتعد هي الأخرى من أشهر أنواع عقاقير الهلوسة التي تجعل متعاطيها يشعر بأن هناك زحفًا من الحشرات مِن حوله وعلى جسده ومن هنا جاء اسمها.

(13) حقيقة.

(14) حقيقة.. ويتحدث هنا عن قرية (أودرزانسكي) (Odrzanskie) البولندية.. لكن هناك دراسات ترجّح أن بعض المواد المخدرة تضعف الجينات الذكورية وتنشط الجينات الأنثوية.. وأن سكان هذه القرية -ربّما- أدمنوا على شيء معيَّن في نظامهم الغذائي تسببَ في ضعف الجينات الذكوريّة لديهم من دون علمهم.

(15) تتحدَّث عن المبدعة الكويتية (غدير الشيرازي) التي تمتلك حسابًا رسميا على مواقع التواصل الاجتماعي تعرض خلاله إبداعاتها.. كما ظهرت في أكثر من لقاء تلفزيوني تتحدث فيه عن صناعتها لتلك الدمى.. وعن تعاملها مع شركات الإنتاج العربية في الأعمال الدرامية.

(16) (التكلم البطني) (Ventriloquism) أو (المقمقة) كما يطلق البعض عليه.. هو أن يستخدم المؤدّي حبالَه الصوتيَّة لينطق الكلمات

من دون تحريك شفتيه أو عضلات وجهه.. بحيث يبدو صوتُه للناس وكأنَّه قادمٌ من مكان آخر.. وهو ليس بالأمر شديد الصعوبة كما قد يظن البعض.. بل يحتاج فقط إلى تدريب مستمر وسيناريو كوميدي افتراضي بين المؤدّي والدمية.. ليتم بعد ذلك تقديم عرض مسرحي ممتع أمام الجمهور.. أما الاسم (Ventriloquism) فيعود للكلمة اللاتينية (Venter) وتعنى التحدُّث من المعدة.. و(Loqui) أي الكلام.. وتجدر الإشارة إلى أنه في القرون الوسطى كان يُعتقد أن التحدث من البطن من عالَم السحر والشعوذة.. لكن بدءًا من حوالي القرن الـ19.. تراجع الغموض حول الخدعة حين فهم الناس طريقة أدائها.

(17) حقيقة.

(18) (فوبيا) حقيقية ويطلق عليها (أوتوماتونوفوبيا) (Automatonophobia).. وتعني الخوف من كل الأشياء الشبيهة بالبشر.. مثل الدمى والتماثيل البشرية المصنوعة من الشمع وغيرها.. وحتى التماثيل التي تعرض الأزياءَ في واجهات المحلات.. وكذلك الروبوتات بشرية الشكل.. أما علاج هذا النوع من الفوبيا -وكل أنواع الفوبيا عموما- يكون عادةً من خلال جلسات نفسية.. أو اللجوء إلى العلاج الدوائي إذا كانت الحالة المرضيَّة متقدِمة حسب تقدير الطبيب النفسي.. فهو من يقرّر طريقةَ العلاج في النهاية.

(19) مقولة للكاتب الكبير (آرثر كونان دويل) (Arthur Conan Doyle) (1859-1930) مبتكرِ شخصيَّةِ (شيرلوك هولمز) (Sherlock Holmes) الشهيرة.

(20) حقيقة.. ويتحدث هنا عن النيبالي (تشاندرا دانجي) (Chandra Dangi) الذي توفي عام 2015 وهو يبلغ من العمر 72 عامًا.. فهو أقصر قزم سجلته المراجع حتى الآن.. وكان يبلغ طوله

54.6 سم.. علما أن القزمَ يوصف بأنه كذلك حين يكون طولُه أقل من 147 سم كما تشير بعض المراجع.. أي أن طول الأقزام يتفاوت كثيرا.. و(القَزامة) أو داء (التقزُّم) عبارة عن حالة طبية غالبا ما تكون طفرةً جينيةً غير متوقعة.. نتيجة مرض يصيب الهيكل العظمي يطلق عليه اسم (عجز النمو الغضروفي) (Achondroplasia).. فهناك عملية اسمها (التعظُّم داخل الغضروف) تحدث أثناء نمو الجنين وتكوين الهيكل العظمي والتشكيل البدائي للعظام الطويلة.. وعند حدوث خلل في هذه العملية يحدث (التقزُّم).. ويتباين (التقزُّم) كثيرا إلى درجة يصعب حصرُها.. فأحيانا يحمل القزم بنية جسمانية غير متناسقة.. كأن يكون جانب واحد -أو أكثر- من أجزاء الجسم كبيرًا.. أو صغيرًا نسبيًّا مقارنة ببقية أجزاء الجسم.. أما في حالات الأقزام المتناسقة.. فيتناسب الجسم بشكل طبيعي.. ولكنه سيبدو صغيرًا للناس بشكل واضح.. ومن الممكن الكشفُ عن هذه الحالات قبل الولادة.. علما بأن لفظة (قزم) تعتبر مُهينة لمن يعانون هذا الاضطراب الجيني.. فيُطلَق عليهم بالمقابل لقبٌ يرونه أكثرَ احترامًا وهو (صغار الحجم).

(21) في عام 1971 قام شخص مجهول الهوية باختطاف طائرة تتبع إحدى خطوط الطيران الأمريكية أثناء طريقها إلى ولاية (سياتل) الأمريكية.. حيث اشترى الرجلُ تذكرتَه باسم وهمي وهو (دان كوبر) (Dan Cooper).. خاصة وأن خطوط الطيران الداخليَّة في ذلك الوقت لم تكن تكترث كثيرا للإجراءات الأمنية.. وقد طلب المختطِف مبلغ 200 ألف دولار نظير الإفراج عن الرهائن المسافرين -وهو مبلغ فادح في ذلك الوقت- بالإضافة إلى مظلة (باراشوت).. وإلا سيقوم بتفجير الطائرة.. فامتثلت السلطاتُ لطلبَه خوفًا على سلامة المسافرين.. وهبطت الطائرة في مطار ولاية (سياتل).. لتقوم السلطات بإيصال المبلغ مع المظلة إلى داخل الطائرة.. تماما كما طلب منهم (دان كوبر) الذي تعاون معهم وأطلق سراح المسافرين..

ثم أمر طاقم الطائرة بالإقلاع مرة أخرى والتوجه إلى ولاية (نيفادا).. لكنه أثناء الطيران.. استخدم المظلة ليخرج من الطائرة وبجعبته المال إلى جهة مجهولة ومصير غير مؤكد.. ليختفي بعد ذلك!!.. ولم يعثر عليه أحد رغم أن رجال المباحث الأمريكية ظلوا يبحثون عنه طوال الـ 45 عاما التالية.. إلى أن أعلنت السلطاتُ فشلَها وأوقفت التحريات رسميًّا عام 2016.. وتعد هذه الحادثة الوحيدة في تاريخ اختطاف الطائرات التي لم يتم فيها القبض على الفاعل.. أو حتى التوصل إلى مُلابساتِها.. والطريف أن آخرِينَ حاولوا تقليد (دان كوبر) في العام التالي!!.. إلَّا أنهم جميعا فشلوا وتمَّ القبض عليهم.. مما جعل الإجراءات الأمنية في المطارات أكثر صرامةً ودقةً في السنوات التالية فيما يتعلَّق بالرحلات الداخلية.

(22) حكاية خيالية تراثية تناقلتها الأجيال، واختلفتْ في تفصيلها من راو لآخر.. وهي عن حلَّاق أرسل الوالي في طلبه يوما.. فشعر بالخوف وهو يعلم أنَّ كل حلَّاقي المدينة الذين دخلوا قبلَه قصر الوالي لم يخرجوا منه.. فالتزم بالأوامر وذهب ليقابل الوالي الذي كان يرتدي عمامةً لم ينزعها أمامَ أحد أبدا من قبل.. لكنه كان مضطرًّا لنزعها أمام الحلَّاق بطبيعة الحال.. وما أن فعل.. حتى انتبه الحلَّاق أن للوالي أُذنَين كبيرتَين جدا.. كأذني الحمار.. مما أصاب الحلَّاق بالاستغراب الشديد.. لكنه أدى دوره وحلق شعر الوالي الذي هدَّده بالقتل لو باح لأحد بالسر.. ثم تركَه يرحل بسبب ندرة الحلَّاقين الذي بقوا على قيد الحياة في المدينة.. وبعد أن خرج الحلَّاق.. شعر بصعوبة بالغة بكتمان السر.. وكان كلما يريد أن يخبرَ أحدًا بما رأى.. يضع يده على فمه كي يمنع نفسَه من الكلام.. إلى أن انتفخت بطنُه.. فنصحته زوجتُه أن يقول ما يريد في بئر عميقة على أطراف المدينة.. وبالفعل امتثل الحلَّاق لنصيحة زوجته وقال السر بصوت مرتفع للغاية في البئر.. لكن بعد فترة بسيطة.. سقى أحدُ المزارعين مزرعتَه مستخدمًا مياه ذلك البئر.. فأخذتِ الزهورُ

والنباتاتُ تتراقص وتغني: ((للوالي أُذنَان كبيرتان)).. إلى أن سمع الوالي بما حدث.. فأرسل بطلب الحلّاق كي يقتله.. ليأتي الحلّاق وأسنانُه تصطكُّ رعبًا.. ويقول للوالي: ((إنني لم أُفشِ سرَّك يا مولاي.. وإنما الزهورُ والنباتاتُ غنَّت من أجلِكَ لأنك متميّزٌ عن بقيَّة الناس)).. فخُدِعَ الوالي بما قاله الحلّاق وعفا عنه.

(23) (الاسترفاع) (Levitation) مقدرةٌ شهيرة لم تثبت حقيقتُها حتى الآن.. تتمثل باستطاعة الإنسانِ الارتفاعَ عن سطح الأرض بعد فترة من التأمُّل من دون استخدام أيَّة وسيلة مادية.. متحدّيًا بذلك قوانين الجاذبية الأرضية.. إلا أن الباحثينَ لم يعثروا على حالة استرفاع واحدة حقيقية.. فجميعُ الحالات التي تمَّ رصدُها كانت عبارة عن خدعة (استرفاع بالدوتشي) (Balducci Levitation) وقد تم تنفيذُها ببراعة.. حيث أُطلق عليها هذا الاسمُ نسبةً إلى (إيد بالدوتشي) (Ed Balducci) (1906-1988) الذي يعتبر أول من تحدَّث عن خدعة الاسترفاع ووصفَ كيفيَّةَ القيامِ بها بالتفصيل.

(24) (توابيت السلامة) (Safety Coffins) انتشرت في أوروبا في القرن الـ19.. حيث كان من السائد آنذاك أن يُخطئ الطبيبُ ويقوم بتشخيص بعض الحالات الطبية على أنها وفاة.. بسبب عدم وجود الأجهزة والأدوات الطبية التي نمتلكها في زماننا الحالي بطبيعة الحال.. فكان الكثيرون يقومون بتزويد توابيت أقاربِهم الموتى بالأجراس.. حتى إذا ما استيقظَ في قبره مَن ظنَّه الأطباءُ ميتًا.. سيتمكَّن من طلب المساعدة.. من خلال حبل مربوط في يده ويمتدُّ إلى خارج القبر معلَّقًا بجرس.. حيث يهتز الجرس ليلفت انتباه الناس فيقومون بمساعدتِه وإخراجِه.. وقد تمَّ تسجيل حالات استيقظ فيها بعض من ظنَّهم الأطباء موتى بالفعل.

(25) الاكتئاب (Depression) اضطراب نفسي شائع جدا، ويسبب

شعورًا حادًّا بالحزن الدائم والخواء والقلق وانعدام القيمة.. مع نوبات غضب وتهيج على أمور تافهة.. والتركيز الشديد على إخفاقات الماضي.. وفقدان الشهية أو العكس مع= =اضطرابات حادة في النوم.. وفقدان الاهتمام بكل متع الحياة.. ولا ننسى صعوبة التركيز والتردد الدائم في اتخاذ القرارات.. والمشاكل الجسدية غير المبرَّرة مثل الآلام المتفرقة في الجسم والصداع المستمر.. أي أن الاكتئاب ليس مجرَّد حالة مزاجية سيّئة يمكننا الخروج منها بسهولة كما قد يظن البعض.. فأحيانا يتطلب علاجًا بالأدوية أو بالجلسات النفسية.. اعتمادًا على سوء الحالة.. أما سبب الاكتئاب فقد يكون وراثيًّا.. أو نتيجة تعرض الإنسان لصدمات كبيرة في حياته.. خصوصًا مرحلة الطفولة.. لذا فلو كان المرء يعاني الاكتئاب.. سيتوجب عليه زيارة طبيب نفسي في أسرع وقت.. كي يصف له أدوية مضادة للاكتئاب ومثبّتة للمزاج.. وتلعب تلك الأدوية دورا فعالا في العلاج كونها تقوم بما يشبه بتنظيم النواقل العصبية في الدماغ.. فهي مسؤولة بدرجة كبيرة عن استقرار الحالة المزاجية للإنسان.

(26) (النِّفاس) هي الفترة التي تلي الولادة.. حيث تبدأ فيها كافة أنظمة جسم الأنثى باستعادة حالتها الأصلية التي كانت عليها قبل الحمل.. كما يعود الرحمُ لحجمه الطبيعي بعد أن يتخلَّص من الدم والإفرازات المهبليّة التي امتلأ بها وقت الحمل.. وعادة ما تستغرق فترة النِّفاس هذه حوالي 6 أسابيع.. أما (حُمَّى النِّفاس) فهو مصطلح يطلق على عدوى بكتيرية تصيب الجهاز التناسلي للأنثى بعد الولادة أو إسقاط الجنين.. وتشمل ارتفاعًا في درجة الحرارة مع الارتجاف والألم أسفل البطن.. وخروج مفرزات مهبلية كريهة الرائحة أحيانا.. تحدث هذه الحالة عادةً بعد أول 24 ساعة من الولادة ضمن الأيام العشر الأولى من النِّفاس.

(27) يتحدث عن الطبيب والعالم (إيجناز سيملفيس (Ignaz

(1865-1818) (Semmelweis.. والذي يعتبر أول من اكتشف سبب إصابة الأطفال حديثي الولادة بالحُمَّى وإصابة النساء بـ(حُمَّى النِّفاس).. إذ تبين له أن السبب يعود إلى عدم تعقيم الأطباء أيديهم وأدواتهم قبل إجراء عمليات الولادة.. خاصة وأن (حُمَّى النِّفاس) كانت منتشرةً كثيرا في المستشفيات منتصف القرن الـ 19 مع معدل وفيات مرتفع جدا وصل إلى 35%.. وعلى الرغم من بحوثه العديدة حول هذا الأمر والتي ساهمت بتقليل الوفيات إلى نسبة أقل من 1% بعد أن امتثل الكثير من الأطباء لكلامه.. إلا أنَّ دراساته كانت تتعارض مع الآراء العلمية والطبية المعروفة آنذاك.. كما أن المجتمع الطبي رفض أفكاره رغم نتائجها المبهرة.. كونه لم يتمكن من تقديم تفسير علمي مقبول لتلك النتيجة.. بالإضافة إلى معارضة عدد من الأطباء لفكرة وجوب غسلِ أيديهم.. مما أشعرهم بالإهانة وعدم التقدير.. لذا.. وفي عام 1865 ميلادية أُحيل (سيملفيس) إلى مستشفى الأمراض العقلية للأسف بسبب محاولاتِه العديدة لإثبات أنه على حق.. مما جعله يُصاب باضطرابات نفسية شديدة.. والمؤسف أنه كان يتعرَّض للضرب والإهانة في المصحَّة.. حيث توفّي هناك وهو لم يتجاوز الـ 48 عامًا.. لكن المجتمع الطبي اكتشف أن (سيملفيس) على حق بعد وفاته بسنوات قليلة فحسب.. حين تم اكتشاف الجراثيم بفضل العالِم الشهير (لويس باستير) (Louis Pasteur) وأنه يتوجَّب التخلُّص منها بالفعل من خلال تعقيم الأدوات واليدَين قبل العمليات الجراحية.. وهذا ما جعل الهيئات العلمية تقوم بتكريم اسم (سيملفيس) في مناسبات عديدة.. بل وصنعت له تماثيلَ في العديد من البلدان.. كما قامت حكومة بلده بصنع تمثال كبير له أمام إحدى أهم مستشفيات العاصمة (بودابست).. وقامت أيضا محركات (Google) بتكريمه والاحتفاء به.. لكن بالطبع كل هذا بعد فوات الأوان.

(28) (متلازمة الكوخ) (Cabin Fever) هي حالة ذهنية

تشمل مجموعة من الأعراض النفسية قد يعاني منها الشخص عند البقاء في البيت لفترة طويلة.. حيث الشعور بالسلبية والعزلة والانفصال عن العالم الخارجي، وعدم الرغبة بالمشاركة في اللقاءات الاجتماعية.. مع الحزن والخمول وقلة الدافع، وصعوبة التركيز والشعور باليأس وقلة الصبر، وأحيانا العصبية الشديدة.. مما قد يؤدي أيضا إلى الاكتئاب.. علما بأنه لم يتمَّ تصنيف (متلازمة الكوخ) بأنها اضطراب نفسي بعد.. ولكن يمكن للشخص مراجعة الطبيب النفسي رغم ذلك والحصول على الدعم اللازم للتخلُّص من تلك المتلازمة إن أراد.

(29) أزمة منتصف العمر (Midlife Crisis) هي مرحلة انتقاليَّة يمر فيها الرجال والنساء على حد سواء.. وتبدأ من سن 40 إلى 65.. وخلالها يختلف منظور المرء للأشياء والوقائع في حياته.. بل ويختلف تعامله معها.. وكأنه يقوم بتكوين شخصيته من جديد.. ومن أهم علامات هذه المرحلة الاكتئاب واتخاذ الانطوائية ملاذًا.. مع الانتقاد المستمر لكل شيء واختلاق المشاكل.. هذا بالإضافة إلى توتر مستمر في جميع العلاقات الشخصية.. فيبدأ المرء يلوم نفسَه على أغلب القرارات التي اتخذَها سابقًا.. وأحيانا أخرى يهرب من مسؤولياته ويسندها لغيره.. علَّه بهذه الطريقة يتدارك ما بقي له في الحياة ويعيد شبابه من جديد.. أما تجاوز هذه المرحلة بسلام فيتطلَّب التجديد في حياة المرء وتعلّم مهارات جديدة وممارسة الرياضة والسفر والقيام بأنشطة ترفيهية مختلفة.

(30) اسم (بيسان) يعني (الشيء الذي لا مثيل له).. وهو أيضا اسم لنوع من النباتات النادرة التي تنتشر في أجزاء من (المملكة العربية السعودية) وما حولها.. كما أنه اسم واحدة من أقدم مدن (فلسطين).. حيث يُعتقد أن الاسم مشتق من اللفظة الكنعانية (بيت شان) وتعني (بيت الآلهة) أو (بيت السكون).

(31) (الساديّة) (Sadism) اضطراب نفسي يميل المصاب به إلى تعذيب الآخرين بطرق مختلفة، كالضرب المبرح أو العضّ أو الوخز بالأبر.. أو حتى بالشتم كنوع من الأذى النفسي.. علما بأن (الساديّة) أنواع.. فهناك (الساديّة) الإجراميّة والتي تُعد الأبشع على الإطلاق.. حيث تُمارَس خلالها أفعال شديدةُ الألم والضرر تجاه الضحايا قد تؤدّي إلى موتهم.. وهناك (الساديّة) الخفيفة.. ويتم خلالها التحكُّم بمدى العنف الذي يمارَس كي لا يسببَ الموت أو العاهة للضحية.. وهناك أيضا (الساديّة) المقبولة التي تعتبر الأكثر انتشارًا في العالَم، وتقتصر فقط على العنف اللفظي وليس الجسدي.. وغالبا ما ترتبط طريقة علاج (الساديّة) بإعادة تأهيل الإنسان من خلال جلسات نفسية لتحفيز سلوكه الإيجابي.. ودفعِه لممارسة الأعمال الخيريّة والتطوعية تحت مراقبة شديدة.. وأحيانا يدخل الجانب الدوائي حسب درجة (الساديّة) التي يعانيها الفرد.. أما مدة التأهيل والعلاج فتختلف من حالة لأخرى.. لكن المشكلة أنه ليس من الشائع أن يبحث الشخص السادي عن علاج لحالته.. وما يحدث عادة هو أن يقوم القضاء بتحويله إلى مصح نفسي إذا ثبت تورُّطه بحادثة ما.. وقد صاغ مصطلح (الساديّة) للمرة الأولى عالم النفس الألماني (ريتشارد فون كرافت إيبنج) (Richard von Krafft-Ebing) في نهاية القرن الـ 19 حين تحدَّث عن تصرُّفات وسلوكيّات (ماركيز دي ساد) (Marquis De Sade).. وهو أحد النبلاء الفرنسيّين الذين عاشوا في القرن الـ 18.. إذ كان كاتبًا وفيلسوفًا ومؤلفًا بنفس الوقت.. وقد اشتهر بمؤلَّفاته ذات المحتوى العنيف في الممارسات الجنسيّة.. أهمُّها رواية (جستين) (Justine).

(32) (السايكوباثيّة) (Psychopathy) أو (الاعتلال النفسي) عبارة عن اضطراب يجعل من الشخص عدوًّا للمجتمع أو (anti-social) كما يطلق عليه باللغة الإنجليزية.. فيمارسُ الخيانة

والغدرَ والكذبَ والسرقةَ والتلاعب بالآخرين.. فقط للوصول إلى مبتغاه.. مع افتقاد مشاعر التعاطف تجاه الضحايا.. والمشكلةُ بشخصيَّة كهذه أن صاحبَها قادر على التعامل بوداعة ولطف مع الناس.. فيكسب ثقتَهم وتعاطفَهم بسهولة.. مما يسهّل له ارتكاب كل جرائمه.. ويوصم الكثيرُ من السفَّاحين والحكَّام المستبدّين الذين قتلوا الآلاف بأنهم يُعانون من هذا الاضطراب.. والواقع أن تحديد الفارق بين (السايكوباثيّة) و(الساديَّة) ليس بالأمر اليسير.. فالآراء تتضاربُ وتختلف للتمييز بينهما.. لكن نستطيع القول أن الشخصية الساديَّة تلجأ إلى العنف رغبةً به فقط.. من دون نوايا خفيَّة.. على عكس الشخصية السايكوباثيَّة التي تعتبرُ أكثر خطورة.. فهي قد تلجأ أحيانا إلى التخطيط على المدى البعيد من أجل تدمير حياةِ الآخرين لتحقيق مصالح معيَّنة.

(33) حقيقة.. فهناك سيدة أمريكية أبقى المسؤولون هويتها مجهولة حماية لها.. وأطلقوا عليها اسم (S.M) اختصارًا.. حيث اكتشفوا في عام 1994 ميلادية أنها لا تشعر بالخوف من أي شيء في العالم.. بل وقام الباحثون في جامعة ولاية (آيوَا) بتعريضِها للثعابين والعناكب وأفلام الرُّعب.. وأشياء كثيرة أخرى يفترض أنها تخيف الإنسان العادي.. لكنها -رغم ذلك- لم تُعطِ أيَّة استجابة لمشاعر الخوف.. وذلك بسبب إصابتها بمرض نادر جدا يتسبَّب بتلف في (اللوزة الدماغية) أو (لوزة المخيخ) (Amygdala) التي تلعب دورًا مهمًّا في إدراك وتقييم العواطف والاستجابات السلوكيَّة المرتبطةِ بالخوف والقلق.. فهي أشبه بنظام إنذار يساعدُنا على أخذ الحِيطة والحذر مما قد يهدّد سلامتَنا.. وقد أُطلق على المرض اسم (أورباخ-فيته) (Urbach–Wiethe disease) نسبة للعالِمَين النمساويَّين (Erich Urbach) و(Camillo Wiethe) اللَّذَين اكتشفاه وأعلنا عنه رسميًّا عام 1929 ميلادية.. إلا أن السيدةَ (S.M) نفسَها فجَّرتْ مفاجأة كبرى حين تطوّعت -بناء على طلب من أحد العلماء-

لاستنشاق كمية ضخمة ومركَّزة من غاز ثاني أكسيد الكربون.. حيث قام المخ بتفسير تلك الكمية الضخمة من الغاز على أن السيدة (S.M) تتعرَّض للاختناق وقد تموت في أيَّة لحظة.. عندها فقط شعرَتْ بحالة من الذعر.. وذلك لأنَّ الغاز ساهم بتقليل التلفِ في (اللوزة الدماغية).. ويأمل العلماءُ تكثيفَ الدراساتِ حول المرض وحول تلك السيدة لعلَّ هذا يساعد مستقبلًا في العلاج من الاضطراباتِ النفسيَّة مثل الفوبيا و(اضطرابات ما بعد الصدمة) (Post-traumatic Stress Disorder).. ختامًا.. يجب أن نذكر أنَّ السيدة (S.M) لا تُعاني أيَّة اضطرابات نفسية.. فهي كبيرةٌ في السن نسبيًّا.. من مواليد عام 1965 وهي متزوجة أيضا وأمٌّ لثلاثة أولاد.. كما أنها قادرة على التعاطفِ مع الآخرين والإحساسِ بمعاناتِهم.